الباب الرابع

الثمرات

إن دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام تختلف عن أى دعوة أخرى من دعوات البشر المنبتة عن هداية الله، ولذلك كان شيئا عاديا تماما أن تكون آثارها وثمارها تختلف عن غيرها، فاذا كان ثمار الدعوات الأخرى الإغراق فى الشهوات والملذات الحيوانية، فان من ثمار دعوة الرسل ضبط النفس إلا عن المتع المعقولة.

وإذا كان من ثمار الدعوات الأخرى عدم التقيد بالحق والخير والمعروف. فانه شئ عادى أن يكون من ثمرات دعوة الرسل الالتزام بهذا، واذا كانت دعوات غير الرسل تعتبر الجمال مقدما على الأخلاق، فشئ عادى أن يكون من ثمرات دعوة الرسل إعتبار الجمال فى الأخلاق الكريمة العالية.

والقصد من هذا أن نقول:

إن الفطرة تحس بالخير والشر، وإن فطرة الانسان تستشعر الثمرة الطيبة للدعوة الطيبة، كما يستشعر ذوق الانسان حلاوة الثمرة الطيبة، وإن فطرة الانسان تستشعر الثمرة الخبيثة للدعوة الخبيثة، كما يستشعر ذوق الإنسان مرارة الثمرة الرديئة.

ولذلك كان عند الفطرة نوع بصيرة تستطيع بها أن تميز ثمرات الرسول الحق من ثمرات مدعى النبوة الكاذب، وأن ترى فى آثار كل ما يدل على صدق الأول وادعاء الثانى.

وقد أشارت الكتب السماوية الى هذا المعنى.

فقال الله تعالى فى القرآن:

﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً ﴾ [الأعراف: ٥٨].

ويذكرون فى انجيل متى الباب السابع الفقرة (١٥-١٦) على لسان المسيح قوله:

«احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة. من ثمارهم تعرفونهم، هل يجتنون من الشوك عنبا أو من الحسك تينا».

ويقول الله تعالى:

﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩].

ويذكرون فى الباب الثالث عشر من انجيل متى الفقرة (٣١-٣٢) على لسان المسيح عليه السلام:

«قدم لهم مثلا آخر قائلا: يشبه ملكوت السموات حبة خردل أخذها إنسان وزرعها فى حقله. وهى أصغر جميع البذور، ولكن متى نمت فهى أكبر البقول وتصير شجرة حتى أن طيور السماء تأتى وتأوى فى أغصانها».

يعرف النبى من ثماره، لذلك كان لابد من كتابة هذا الفصل لتبيان أن ثمار محمد عليه السلام لا يمكن أن تكون إلا ثمار نبى.

وسنستعرض فى هذا الفصل عشر ثمرات من ثمراته عليه الصلاة والسلام. فى كل منها شهادة كاملة على أنها منبثقة من شجرة النبوة الطيبة العطرة المتميزة.

أولا: التوحيد:

فى الهند ٢٠٠ مليون بقرة، هذه الأبقار يعتبرها الهنود مقدسة، وبالتالى فانهم لا يستفيدون منها بتاتا، ويحرمون ذبحها، وأكثر من هذا فان الشعب الهندى كله مسخر لخدمتها، وتعيش على حسابه، فكم يحتاج هذا العدد من الأبقار الى مراع وطعام؟

وكم تعطل طاقات على حساب هذا المعنى.

وزيادة على ذلك فان لهذا البقر سلطانا على كل شئ. تقف البقرة فتوقف

وراءها السيارات ولا يزعجها أحد حتى تمضى هى فيمضى غيرها. وتبول فى أى مكان وتخثى فى أى مكان. وتعتدى على مال أى إنسان، ولا أحد يجرؤ على أن يعترض سبيلها بشئ. وفى الهند هذه السنين مجاعة تهدد عشرات الملايين، ترى لو استفاد الشعب الهندى من البقر ألا تنحل شئ من أزمته؟

إن هذه الصورة من صور الشرك جعلت البشر مسخرا لخدمة البقر.

وفى مصر أهرامات ضخمة جدا، أحجارها ضخمة جدا، نقلت من أمكنة بعيدة جدا، نقلها آلاف من أبناء الشعب المصرى إلى منطقة الأهرامات، وتعبت فى بناء هذه الأهرامات آلاف الأدمغة وآلاف الأيدى من أجل ماذا؟

من أجل أن يصنعوا قبرا لفرعون الذى كانوا يعبدونه كإله!!

فكم أنفق من جهد، وكم أنفق من أموال؟ بسبب هذه الصورة من صور الشرك.

شعب من البشر مسخر كله لخدمة فرد من البشر.

وفى العالم اليوم حوالى ثلاثة عشر مليونا من الطائفة الإسماعيلية، التى تعبد رجلا كإله وتقدم له كل عام خمس أموالها، تجعله فى كفة ميزان، وتجعل الذهب فى كفة أخرى حتى يتساويا، وتقدمه له كهدية سنوية، ثلاثة عشر مليونا من البشر يستغلهم فرد باسم الألوهية. ليجهدوا ويقدموا، أما هو فيأخذ ويكنز وينفق بلا حساب على أشياء كثيرة وقد يكون المرشح لهذا المنصب داعرا فاسقا ماجنا، ينال هذا كله ويصرفه فى كل سبيل داعر، ذلك أثر من آثار الشرك بالله، أن يستغل فرد من البشر شعبا كاملا من البشر باسم ألوهية الإنسان وعبودية الإنسان للإنسان.

وفى العالم اليوم شعوب وثنية، وقديما كانت الوثنية منتشرة فى العالم كله لم تخل منها أمة من الأمم:

الرومان واليونان والهند والصين واليابان والعرب.. والشعوب الأفريقية من مصر إلى غيرها.. فماذا تعنى هذه الوثنية؟ قبل أن نقول ماذا تعنى نضرب أمثلة عن نماذج منها:

(أ) عند العرب:

١- روى البخارى عن أبى رجاء العطاردى قال: كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرا هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجرا جمعنا حثوة من تراب ثم جئنا بالشاة فحلبنا عليه ثم طفنا به.

٢- وقال الكلبى: كان الرجل إذا سافر فنزل منزلا أخذ أربعة أحجار فنظر الى أحسنها فاتخذه ربا، وجعل ثلاثا أثافى لقدره وإذا ارتحل تركه.

٣- وقال صاعد فى كتاب «طبقات الأمم»: كانت حمير تعبد الشمس. وكنانة القمر. وتميم الدبران، ولخم وجذام المشترى، وطئ سهيلا، وقيس الشعرى العبور، وأسد عطارد.

٤- وقال الكلبى: كان لأهل كل دار من مكة صنم فى دارهم يعبدونه، فاذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع فى منزله أن يتمسح به، وإذا قدم من سفر كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به أيضا.

٥- وكان لكل قبيلة من العرب صنم ولكل ناحية أو مدينة صنم خاص وكان فى فناء الكعبة وحدها ثلاثة مائة وستون صنما للعبادة.

٦- قال سعيد بن جبير فى شرح الأزلام: «الأزلام حصى بيض كانوا إذا أرادوا غدوا أو رواحا كتبوا فى قدحين فى أحدهما: أمرنى ربى وفى الآخر: نهانى ربى، ثم يضربون بهما فأيهما خرج عملوا به».

(ب) عند الهنود:

يقول أبو الحسن الندوى عن حال الوثنية فى الهند:

«بلغت الوثنية أوجها فى القرن السادس، فقد كان عدد الآلهية فى ويد ثلاثة وثلاثين، وقد أصبحت فى هذا القرن ٣٣٠ مليونا، وقد أصبح الها يعبد، وهكذا جاوزت الأصنام والتماثيل والآلهة والالهات الحصر وأربت على العد. فمنها أشخاص تاريخية وأبطال تمثل فيهم الله - زعموا - فى عهود وحوادث معروفة ومنها جبال تجلى عليها بعض آلهتهم، ومنها معادن كالذهب والفضة تجلى فيها إله، ومنها نهر الكنج الذى خرج من رأس «مهاديو» الإله، ومنها آلات الحرب وآلات الكتابة وآلات

التناسل وحيوانات أعظمها البقرة، والإجرام الفلكية وغير ذلك، وأصبحت الديانة نسيجا من خرافات وأساطير وأناشيد وعقائد وعبادات ما أنزل الله بها من سلطان، ولم يستسغها العقل السليم فى زمن من الأزمان».

(جـ) والفرس:

كانوا يعبدون ملوكهم ونيرانهم، واليابانيون يعتبرون ملكهم ابن الشمس المعبودة، واليونانيون يعبدون إله المطر فلانا وآلهة الحب فلانة وإله الحرب فلانا .. وهكذا ...

فماذا تعنى هذه الوثنيات كلها؟

تعنى أن الإنسان اعتبر نفسه أقل من الحجر، وأقل من الشمس، وأقل من الحيوانات، وأقل من مظاهر الطبيعة كلها، بل جعلها فى مقام السيد، وجعل نفسه فى مقام العبد الذليل، وجعلها تتحكم به بواسطة وبغير واسطة.

وقال النصارى: إن المسيح ابن الله وأعطوه حكم الأب - تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا.

فأصبح المسيح عندهم إلها، كما اعتبر الهنود بوذا من قبل إلها، وهؤلاء وهؤلاء صنعوا التماثيل لهذا وهذا وعبدوها، فأصبحت ديانة وثنية شركية من ناحيتين: من ناحية عبادة الأصنام ومن ناحية عبادة الإنسان، ونتج عن هذا أن اعتبر النصارى خليفة المسيح الممثل بالبابا له حكم المسيح من حيث طاعة أوامره ونواهيه، فأصبح التحليل والتحريم والتضليل والتخريف الذى عليه طابع الديانة المقدسة الصادر من قبل البابا هو كل شئ. فكانت مآسى وفظائع من حجر على العقل، وقتل للأنفس، وسلب للحريات، ومقاومة لكل حق ما ذكر التاريخ منه الكثير.

وألحد ناس قديما وألحدوا فى هذا العصر إلا الأقل، فماذا يعنى الإلحاد؟

يعنى الإلحاد أن الإنسان عبد الكون كله بدلا من أن يعبد أجزاء منه، وخلع على الكون كله صفات الألوهية، فالكون يخلق ويرزق، ويعطى ويمنع، ويحيى ويموت، ويتصرف ويعمل، ويرتب ويبدع ويكون، واعتبروا أنفسهم أعظم ما فى هذا

الكون فعبدوا أنفسهم، اعتبروا أن الانسان مصدر التشريع، ومصدر الحاكمية، ومصدر الأمر والنهى. وهو حر أن يفعل وأن يترك وأن يعمل كل شئ فغلبتهم شهواتهم، وظلموا بعضهم، وأصبح كل واحد من هؤلاء يعتبر نفسه الها، وأخيرا اعتبرت الفلسفة الشيوعية الشعب كله إلها يفعل ما يشاء، لا راد لحكمه، وتمثل الشعب بأفراد تصرفوا كآلهة، فحدث على يدهم من المآسى ما لم يحدث على يد غيرهم، حتى أنه قتل فى زمان ستالين وحده تسعة عشر مليونا من أبناء الشعوب المسماة بالاتحاد السوفيتي.

فلم يكن الإلحاد إذن إلا صورة جديدة من صور الشرك، انتقل به الإنسان من الجزئية الى الكلية، ومن الشرك الواضح الى الشرك المقنع، فأعطى الكون كله صفات الألوهية بعدما كان يعطى أجزاء منه، وعبد نفسه وتعبد لها بعدما كان يعبد غيره.

ومحمد وحده بوحى من الله، من يوم بعثته إلى قيام الساعة، هو الذى وضع الانسان فى محله الصحيح فعلمه:

١- أن الكون كله، قمره وشمسه ونجومه وأرضه وحيواناته من بقر ونمر وأسد وعجل، ونباتاته كلها، وأحجاره ومعادنه وكل شئ فيه خلق للإنسان! فالإنسان سيده والإنسان مكرم ومفضل عليه.

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ﴾ [البقرة: ٢٩].

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾

[لقمان: ٢٠]

ومن حق الانسان أن يستفيد من الأرض وخيراتها، ومن القمر وما فيه، ومن المريخ وغيره، كل الكون مسخر للانسان والانسان أكرم ما فيه:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ [الاسراء: ٧٠].

٢- وأن الله خالق الكون والانسان، هو وحده الإله المتصف بكل كمال، المنزه عن كل نقص، المستحق وحده للعبادة، والانسان عبده وحده:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فالناس كلهم عباد الله.. رسولهم ونبيهم، وملكهم وخادمهم، وكبيرهم وصغيرهم، ولا يجوز أن يعطوا عبوديتهم لأحد سواه:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩].

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ [الكهف: ١١٠]

لا إله إلا الله.

لا حجر ولا قمر ولا بشر ولا كون ولا مجلسا نيابيا يحلل ويحرم كما يشاء، ولا شعب ولا حاكم ولا محكوم ولا البشرية كلها.

كل الكون للإنسان، والانسان لله. مقام الإنسان السيادة على المخلوقات، لأنها مسخرة له، والعبودية لله وحده: بنقلة واحدة نقل محمد ﷺ البشر من أحط الدركات الى أعلى الدرجات، وبذلك وجه المسلم، وهذه أول ثمرة من ثمار محمد ﷺ وهى أول ثمرة من ثمار كل نبى ولكن الناس انحرفوا:

مكتوب فى نسخ التوراة الموجودة الآن:

«لو دعا نبى أو من يدعى الالهام فى المنام إلى عبادة غير الله يقتل هذا الداعى وإن كان ذا معجزات عظيمة». الباب الثالث عشر من سفر الاستثناء، وفى الباب السابع عشر منه:

«لو ثبت على أحد عبادة غير الله يرجم رجلا كان أو امرأة».

ومكتوب فى نسخ الانجيل الحالى:

«وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الاله الحقيقى وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته». انجيل يوحنا الباب السابع عشر – ٣

وفى الباب الثانى عشر من إنجيل مرقص – ٢٨ «فجاء واحد من الكتبة وسمعهم يتحاورون فلما رأى أنه أجابهم حسنا سأله: أية وصية هى أول الكل؟ فأجابه يسوع: إن أول كل الوصايا: اسمع يا إسرائيل الرب الهنا رب واحد».

وبهذه النظرة إلى الكون والإنسان، فتح المسلم أقفال الكون بالتجربة والمشاهدة، يدفعه فى ذلك عقيدة أن الكون كله للانسان، وعليه أن يستفيد منه، ولئن وصلت الحضارة الغربية اليوم الى القمة فى تسخير الكون، فذلك بسبب أنها أخذت هذا المعنى عن الحضارة الإسلامية، ولولا ذاك لما كان فى أوروبا حضارة ولا علم وأين يكون ومحاكم التفتيش وسيف الكنيسة مسلطة على رأس كل من يفكر، بقول «بريفولت» فى كتابه «بناء الانسانية»:

«ما من ناحية من نواحى تقدم أوروبا إلا وللحضارة الإسلامية فيها فضل كبير وآثار حاسمة لها تأثير كبير».

ويقول فى موضع آخر:

«لم تكن العلوم الطبيعية التى يرجع فيها الفضل الى العرب هى التى أعادت أوروبا إلى الحياة، ولكن الحضارة الإسلامية قد أثرت فى حياة أوروبا تأثيرات كبيرة ومتنوعة منذ أرسلت أشعتها الأولى إلى أوروبا».

ولكن للأسف فإن أوروبا أخذت جزءا فقط من هدى محمد ﷺ فى هذا الموضوع ولو أخذته كله لأفلحت واهتدت.

إن هذه الثمرة من ثمار محمد ﷺ التى لا يصلح الإنسان إلا بها، ولا يأخذ محله الصحيح إلا إذا اعتقدها، لا يمكن أن تكون على هذا الكمال والتمام فى دعوة محمد عليه الصلاة والسلام لو لا أنه رسول الله حقا. أراد الله به أن ترجع الانسانية عن الإنحراف إلى الاستقامة.

ثانيا: التبشير باليوم الآخر وطلب النجاة فيه وجعله محور سلوك الإنسان:

مكتوب فى كتاب أيوب فى الباب الثانى والأربعين منه فقرة (١٧): «ومات أيوب شيخا معمرا ويبعث مرة أخرى مع الذين يبعثهم الرب».

ومكتوب فى انجيل مرقس الباب الثالث عشر فقرة (٣٢) :

« وما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ، ولا الملائكة الذين فى السماء ولا الابن – أى المسيح – إلا الآب – أى الله »، وتعالى أن يكون أبا أو يكون له ولد، وإنما ذكرنا العبارة هنا لندلل على ذكر يوم القيامة فى كتب العهد القديم والجديد .

ومكتوب فى الباب التاسع عشر من انجيل متى هكذا (١٦) : « وإذا واحد تقدم وقال أيها المعلم الصالح . . أى صلاح أعمل لتكون لى الحياة الأبدية »؟

إن الرسل كلهم بعثوا من أجل أن يبشروا بالحياة الأبدية الطيبة للصالحين والعذاب الأبدى للطالحين.

﴿ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾

[النساء: ١٦٥]

إن من ثمار محمد ﷺ أنه أخرج بإذن الله وأمره جيلا من البشر لم يعد له همة إلا فى أن ينال رضا الله، وينال سعادة الأبد، ودل البشرية على الطريق الى ذلك. فكان أتباعه أعظم نماذج عرفها العالم كطلاب آخرة. هذا مع قيام كامل فى أمر الدنيا إصلاحا ورعاية، ولكن كممر إلى الآخرة. وهذه أمثلة على هذه النماذج تخرجها تربية محمد ﷺ فى كل جيل وكان فيها القدوة الأولى :

١– أخرج الإمام أحمد بإسناد صحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

حدثنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال :

دخلت على رسول الله ﷺ وهو على حصير قال : فجلست فإذا عليه إزاره وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثر فى جنبه، وإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع وقرظ – ورق السلم يدبغ به – فى ناحية من الغرفة، وإذا إهاب معلق فابتدرت عيناى فقال : ما يبكيك يا ابن الخطاب؟ فقلت : يا نبى الله . . وما لى لا أبكى وهذا الحصير قد أثر فى جنبك وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى وذاك كسرى وقيصر فى الثمار والأنهار وأنت نبى الله وصفوته، وهذه خزانتك. قال : يا ابن الخطاب . . أما ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟

٢- وأخرج أحمد عن عائشة رضى الله عنها قالت:

« مات أبو بكر رضى الله عنه فما ترك دينارا ولا درهما، وكان قد أخذ قبل ذلك ماله فألقاه فى بيت المال ».

٣- ومن حديث طويل أخرجه ابن عساكر عن الحسن البصرى فى عمر بن الخطاب:

« فقالوا: ما ترون يا معشر المهاجرين والأنصار الى زهد هذا الرجل والى حليته؟

لقد تقاصرت إلينا أنفسنا مذ فتح الله على يديه ديار كسرى وقيصر، وطرفى المشرق والمغرب، ووفود العرب والعجم يأتونه فيرون عليه هذه الجبة قد رقعها اثنتى عشرة رقعة. فلو سألتم معاشر أصحاب محمد ﷺ وأنتم الكبراء من أهل المواقف والمشاهد مع رسول الله ﷺ والسابقين من المهاجرين والأنصار يغير هذه الجبة بثوب لين يهاب فيه منظره ويعدى عليه جفنة من الطعام ويراح عليه جفنة ياكله ومن حضره من المهاجرين والأنصار.

فقال القوم بأجمعهم: ليس لهذا القول إلا على بن أبى طالب رضى الله عنه فإنه أجرأ الناس عليه وصهره على ابنته، أو ابنته حفصة - فإنها زوجة رسول الله ﷺ وهو موجب لها لموضعها من رسول الله ﷺ -.

فكلموا عليا فقال على:

لست بفاعل ذلك ولكن عليكم بأزواج النبى ﷺ فإنهن أمهات المؤمنين يجترئن عليه.

قال الأحنف بن قيس: فسألوا عائشة وحفصة رضى الله عنهما وكانتا مجتمعتين.

فقالت عائشة: إنى سائلة أمير المؤمنين ذلك.

وقالت حفصة: ما أراه يفعل وسيبين لك ذلك.

فدخلتنا على أمير المؤمنين فقربهما وأدناهما.

فقالت عائشة: يا أمير المؤمنين! أتأذن أكلمك؟ قال: تكلمى يا أم المؤمنين

قالت: إن رسول الله ﷺ مضى لسبيله. إلى جنته ورضوانه لم يرد الدنيا ولم ترده، وكذلك مضى أبو بكر رضى الله عنه على أثره لسبيله بعد إحياء سنن رسول الله ﷺ وقتل المكذبين، وأدحض حجة المبطلين، بعد عدله فى الرعية، وقسمة بالسوية، وارضاء رب البرية، فقبضه الله الى رحمته ورضوانه وألحقه بنبيه صلى الله عليه وآله وسلم بالرفيق الأعلى. لم يرد الدنيا ولم ترده، وقد فتح الله على يديك كنوز كسرى وقيصر وديارهما، وحمل إليك أموالهما ودانت لك أطراف المشرق والمغرب ، ونرجو من الله المزيد، وفى الإسلام التأييد، ورسل العجم يأتونك، ووفود العرب يردون عليك، وعليك هذه الجبة، قد رقعتها اثنتى عشرة رقعة، فلو غيرتها بثوب لين يهاب فيه منظرك، ويغدى عليك بجفنة من الطعام ويراح عليك بجفنة تأكل أنت ومن حضرك من المهاجرين والأنصار؟

فبكى عمر عند ذلك بكاء شديدا ثم قال:

سألتك بالله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شبع من خبز بر عشرة أيام أو خمسة أو ثلاثة، وجمع بين عشاء وغداء حتى لحق بالله؟!

فقالت: لا.

فأقبل على عائشة فقال:

هل تعلمين أن رسول الله ﷺ قرب إليه طعام على مائدة فى ارتفاع شبر من الأرض. كان يأمر بالطعام فيوضع على الأرض ويأمر بالمائدة فترفع؟

قالتا: اللهم نعم.

قال لهما: أنتما زوجتا رسول الله ﷺ وأمهات المؤمنين، ولكما على المؤمنين حق وعلى خاصة. ولكن أتيتما ترغبانى فى الدنيا وإنى لأعلم أن رسول الله ﷺ لبس جبة من الصوف فربما حك جلده من خشونتها، أتعلمان ذلك؟

قالتا: اللهم نعم.

فقال: هل تعلمين أن رسول الله ﷺ كان يرقد على عباءة على طاقة واحدة وكان مسحا فى بيتك يا عائشة تكون بالنهار بساطا وبالليل فراشا فندخل عليه فنرى

أثر الحصير على جنبه، ألا يا حفصة أنت حدثتينى أنك ثنيت له ذات ليلة فوجد لينها فرقد فلم يستيقظ إلا بأذان بلال فقال لك: يا حفصة.. ماذا صنعت؟ أثنيت المهاد ليلتى حتى ذهب بى النوم إلى الصباح؟ مالى وللدنيا ومالى شغلتمونى بلين الفراش يا حفصة!

أما تعلمين أن رسول الله ﷺ كان مغفورا له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، أمسى جائعا ورقد ساجدا، ولم يزل راكعا وساجدا وباكيا ومتضرعا فى آناء الليل والنهار إلى أن قبضه الله برحمته ورضوانه! لا أكل عمر طيبا، ولا لبس لينا، فله أسوة بصاحبيه، ولا جمع بين إدامين إلا الملح والزيت، ولا أكل لحما الا فى كل شهر ينفض ما انفض من القوم، فخرجتا فخبرتا بذلك أصحاب رسول الله ﷺ فلم يزل كذلك حتى لحق بالله عز وجل.

٤- رأيت عثمان بن عفان رضى الله عنه يقبل فى المسجد وهو يومئذ خليفة، قال: ويقوم وأثر الحصير بجنبه.

فيقال: هذا أمير المؤمنين.. هذا أمير المؤمنين..

وعن شرحبيل بن مسلم أن عثمان رضى الله عنه كان يطعم الناس طعام الإمارة ويدخل بيته فيأكل الخل والزيت.

٥- أخرج أبو نعيم فى «الحلية» جـ١ص٨٢ عن رجل من ثقيف أن عليا رضى الله عنه استعمله على عكبر قال:

ولم يكن السواد يسكنه المصلون - وقال لى: إذا كان عند الظهر فرح إلى، فرجعت إليه فلم أجد عنده حاجبا يحبسنى عنه دونه، فوجدته جالسا وعنده قدح وكوز ماء - فدعا بطينة فقلت فى نفسى:

لقد آمننى حتى يخرج إلى جوهرا ولا أدرى ما فيها، فإذا عليها خاتم فكسر الخاتم، فإذا فيها سويق، فأخرج منها فصب فى القدح، فصب عليه ماء فشرب وسقانى، فلم أصبر فقلت:

يا أمير المؤمنين.. أتصنع هذا بالعراق وطعام العراق أكثر من ذلك!؟

قال: أما والله ما أختم عليه بخلا عليه، ولكنى أبتاع قدر ما يكفينى فأخاف أن يفنى فيصنع من غيره، وإنما حفظى لذلك، وأكره أن أدخل بطنى إلا طيبا.

٦- أخرج أبو نعيم فى «الحلية» جـ١ص١٠١ عن عروة قال: دخل عمر بن الخطاب على أبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنه فإذا هو مضطجع على طنفسة رحله، متوسد الحقيبة فقال له عمر: ألا اتخذت ما أتخذ أصحابك؟

فقال: يا أمير المؤمنين.. هذا يبلغنى المقيل.

وقال معمر فى حديثه: لما قدم عمر الشام تلقاه الناس وعظماء أهل الأرض فقال عمر: أين أخى؟ قالوا: من ؟ قال: أبو عبيدة، قالوا: الآن يأتيك. فلما أتاه نزل فاعتنقه فقال: ثم دخل عليه بيته فلم ير فى بيته إلا سيفه وترسه ورحله.

٧- وأخرج أبو نعيم فى «الحلية» عن الحسن قال:

كان عطاء سلمان رضى الله عنه خمسة آلاف درهم، وكان أميرا على زهاء ثلاثين ألفا من المسلمين، وكان يخطب الناس فى عباءة يفترش بعضها ويلبس بعضها، واذا خرج عطاؤه أمضاه - أى تصدق به - ويأكل من سفيف يده.

٨- روى الامام أحمد عن محمد بن كعب أن ناسا نزلوا على أبى الدرداء رضى الله عنه ليلة قرة فأرسل إليهم بطعام سخن ولم يرسل إليهم بلحف، فقال بعضهم: لقد أرسل إلينا بالطعام فما هنأنا مع القر، لا أنتهى أو أبين له. قال الآخر: دعه، فأبى.

فجاء حتى وقف على الباب، رآه جالسا وامرأته ليس عليها من الثياب إلا مالا يذكر فرجع الرجل وقال:

ما أراك بت إلا بنحو ما بتنا به.

قال: ان لنا دارا ننتقل إليها قدمنا فرشنا ولحفنا إليها - أى الدار الآخرة - ولو ألفيت عندنا منه شيئا لأرسلنا إليك به وأن بين أيدينا عقبة كؤودا، المخف فيها خير من المثقل أفهمت ما أقول لك؟

قال: نعم.

٩- وأخرج أبو نعيم عن عمر بن حمزة بن عبد الله قال: كنت جالسا مع أبى فمر رجل فقال:

أخبرنى ما قلت لعبد الله بن عمر رضى الله عنهما يوم رأيتك تكلمه بالجرف؟ قال: قلت: يا أبا عبد الرحمن.. رقت مضغتك، وكبر سنك، وجلساؤك لا يعرفون حقك ولا شرفك، فلو أمرت أهلك أن يجعلوا لك شيئا يلطفونك إذا رجعت إليهم، قال: ويحك.. والله ما شبعت منذ إحدى عشرة سنة ولا ثنتى عشرة سنة ولا ثلاث عشرة سنة ولا أربع عشرة سنة ولا مرة واحدة فكيف لى؟

وإنما بقى منى كظمئى الحمار.

١٠- أخرج عمر بن شية عن أفلح مولى أبى أيوب رضى الله عنه قال: كان عمر رضى الله عنه يأمر بحلل تنسج لأهل بدر يتنوق فيها - أى يتجود ويبالغ - فبعث إلى معاذ بن عفراء حلة فقال لى معاذ: يا أفلح.. بع هذه الحلة. فبعتها له بألف وخمس مائة درهم ثم قال: اذهب فابتع لى بها رقابا، فاشتريت له خمس رقاب، ثم قال: والله إن امرءا اختار قشرين يلبسهما على خمس رقاب يعتقها لغبين الرأى، اذهبوا فأنتم أحرار.

مما مضى يتبين كيف أن الجيل الذى رباه محمد رسول الله ﷺ جيل أصبح همه الأعلى الآخرة، ولم يعد له فى غيرها همة، إلا إذا كان وسيلة إلى الآخرة تقربهم إلى الله، وتفرع عن هذا الأصل سلوك لا مثيل له فى أى جانب من جوانب الحياة، والحياة والمال هما الميزان الذى يمتحن به إيمان الإنسان بالمبدأ والعقيدة. فعلى قدر تضحيته يكون إيمانه، والتضحية التى نراها عند الصحابة - الجيل الذى رباه رسول الله - بالنفس والمال ابتغاء وجه الله والدار الآخرة تضحية لا مثيل لها فى تاريخ العالم أبدا، مما يدل على مقدار إيمانهم باليوم الآخر، حتى أصبح محور وجودهم. وهذه أمثلة على تضحيتهم بالمال والنفس تؤكد لك مقدار استقرار هذا المعنى فى أنفسهم:

(أ) تقول زوجة طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه:

دخلت يوما على طلحة فرأيت منه ثقلا فقلت له: مالك؟ لعله رابك منا شئ فنعتبك.

قال: لا. ولنعم حليلة المرء المسلم أنت. ولكن اجتمع عندى مال ولا أدرى كيف أصنع به؟

فقلت: وما يغمك منه! ادع قومك فاقسمه بينهم.

فقال: يا غلام.. على بقومى.

فسألت الخازن: كم قسم؟

قال: أربع مائة ألف.

كذا فى «الترغيب» ورجاله ثقلت.

(ب) وأخرج أبو نعيم فى «الحلية» عن سعيد بن عبد العزيز قال: – كان للزبير بن العوام ألف مملوك يؤدون إليه الخراج، فكان يقسمه كل ليلة ثم يقوم إلى منزله وليس معه شئ.

– سمعت السيدة عائشة رضى الله عنها يوما رجة فى المدينة فقالت: ما هذا؟ قالوا: قافلة لعبد الرحمن بن عوف قدمت من الشام تحمل من كل شئ، وكانت سبعمائة بعيْر فقالت: يدخل عبد الرحمن الجنة حبوا – أى بسبب غناه – فلما بلغه ذلك قال:

إنى لأرجو أن أدخلها قائما، فجعل القافلة كلها فى سبيل الله الجمال وما عليها ووزعها على الناس.

(ج) أخرج الطبرانى فى «الكبير» عن مالك الدار – هو مالك ابن عياض مولى عمر – ذكره الحافظ فى «الإصابة»:

أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أخذ أربع مائة دينار، فجعلها فى صرة فقال للغلام: اذهب بها إلى أبى عبيدة بن الجراح – رضى الله عنه – ثم تله فى البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع، فذهب الغلام إليه فقال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه فى بعض حاجتك.

فقال: وصله الله ورحمه. ثم قال:

تعالى يا جارية.. اذهبى بهذه السبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان، وبهذه الخمسة الى فلان، حتى أنفدها ورجع الغلام الى عمر فأخبره. فوجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل رضى الله عنه فقال:

اذهب بهذا إلى معاذ بن جبل وتله فى البيت حتى تنظر ما يصنع، فذهب بها إليه فقال:

يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه فى بعض حاجتك، فقال: رحمه الله ووصله، تعالى يا جارية.. اذهبى الى بيت فلان بكذا. اذهبى الى بيت فلان بكذا. فاطلعت امرأة معاذ وقالت:

ونحن والله مساكين.. فأعطنا. فلم يبق فى الخرقة إلا ديناران فدحى بهما - أى رمى - إليها، ورجع الغلام الى عمر فأخبره فسر بذلك فقال: إنهم إخوة بعضهم من بعض.

(د) أخرج ابن سعد عن أم درة قالت: أتيت عائشة بمائة ألف ففرقتها وهى يومئذ صائمة فقلت لها: أما استطعت فيما أنفقت أن تشترى بدرهم لحما تفطرين عليه؟

فقالت: لو كنت أذكرتنى لفعلت.

(هـ) وكان عمرو بن الجموح أعرج شديد العرج، وكان له أربعة بنين شباب يغزون مع رسول الله ﷺ إذا غزا. فلما توجه الى أحد أراد أن يتوجه معه، فقال له بنوه: ان الله قد جعل لك رخصة، فلو قعدت فنحن نكفيك وقد وضع الله عنك الجهاد، فأتى عمرو بن الجموح رسول الله ﷺ فقال:

يا رسول الله.. إن بنى هؤلاء يمنعوننى أن أخرج معك، والله انى أرجو أن أستشهد، فأطأ بعرجتى هذه فى الجنة، فقال له رسول الله ﷺ: أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد.

وقال لبنيه: وما عليكم أن تدعوه لعل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة. فخرج مع رسول الله ﷺ فقتل يوم أحد شهيدا.

(و) تقدم أنس بن النضر يوم أحد وانكشف المسلمون فاستقبله سعد بن معاذ فقال:

يا سعد بن معاذ.. الجنة ورب الكعبة إنى أجد ريحها من دون أحد، قال أنس:

فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل ومثل به المشركون فما عرفه إلا أخته ببنانه.

(ز) وأخرج ابن سعد عن جعفر بن عبد الله بن مسلم الهمدانى رضى الله عنه قال:

لما كان يوم اليمامة كان أول الناس جرح أبو عقيل الأنيفى رضى الله عنه رمى بسهم فوقع بين منكبيه وفؤاده فشطب فى غير مقتل فأخرج السهم ووهن شقه الأيسر - لما كان فيه. وهذا أول النهار وجر الى الرحل، فلما حمى القتال وانهزم المسلمون وجاوزوا رحالهم وأبو عقيل واهن من جرحه سمع معن بن عدى رضى الله عنه يصيح بالأنصار:

الله.. الله.. والكرة على عدوكم، وأعنق معن يقدم القوم وذلك حين صاحت الأنصار:

أخلصونا.. أخلصونا.. فأخلصوا رجلا رجلا يميزون. قال عبد الله بن عمر رضى الله عنه: فنهض أبو عقيل يريد قومه، فقلت: ما تريد يا أبا عقيل.. ما فيك قتال؟

قال: قد نوه المنادى باسمى. قال ابن عمر: فقلت انما يقول: يا للأنصار.. لا يعنى الجرحى.

قال أبو عقيل: أنا رجل من الأنصار وأنا أجيبه ولو حبوا، قال ابن عمر: فتحزم أبو عقيل وأخذ السيف بيده مجردا ثم جعل ينادى: يا للأنصار.. كرة كيوم حنين. فاجتمعوا - رحمهم الله - جميعا يقدمون المسلمون دربة - أى جرأة وشجاعة وقفة - دون عدوهم حتى اقتحموا عدوهم الحديقة فاختلطوا واختلفت السيوف بيننا وبينهم. قال ابن عمر: فنظرت الى أبى عقيل وقد قطعت يده المجروحة من المنكب فوقعت على الأرض وبه من الجراح أربعة عشر جرحا كلها قد خلصت الى مقتل، وقتل عدو الله مسيلمة، قال ابن عمر:

فوقعت على أبى عقيل وهو صريع آخر رمق فقلت: يا أبا عقيل..

فقال: لبيك - بلسان ملتاث - لمن الدبرة؟ قال: قلت: أبشر، ورفعت صوتى قد قتل عدو الله. فرفع إصبعه إلى السماء يحمد الله ومات يرحمه الله. قال ابن عمر: فأخبرت عمر رضى الله عنه بعد أن قدمت خبره كله فقال: رحمه الله.. ما زال يسأل الشهادة ويطلبها، وإن كان ما علمت من خيار أصحاب نبينا ﷺ وقديم إسلام.

(ح) وفى يومن اليرموك قال عكرمة بن أبى جهل:

«قاتلت رسول الله ﷺ فى مواطن، وأفر منكم اليوم؟.. ثم نادى: من يبايع على الموت؟

فبايعه عمه الحارث بن هشام وضرار بن الأزور رضى الله عنهما فى أربع مئة من وجوه المسلمين وفرسانهم فقاتلوا قدام فسطاط خالد رضى الله عنه حتى أثبتوا جميعا جراحا وقتل منهم خلق، منهم: ضرار ابن الأزور، وأتى خالد رضى الله عنه بعدما أصبحوا بعكرمة جريحا فوضع رأسه على فخذه، وبعمرو بن عكرمة فوضع رأسه على ساقه وجعل يمسح عن وجوههما ويقطر فى حلوقهما الماء ويقول: كلا.. زم ابن الحنتمة أنا لا نستشهد».

(ط) وروى البخارى عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه قال: «إنى لفى الصف الأول يوم بدر، إذ التفت فإذا عن يمينى ويسارى فتيان حديثا السن فكأنى لم آمن بمكانهما إذ قال لى أحدهما سرا من صاحبه: يا عم.. أرنى أبا جهل.

فقلت: يا ابن أخى.. ما تصنع به؟

قال: عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه.

فقال لى الآخر سرا من صاحبه مثله.

قال: فما سرنى أننى بين رجلين مكانهما فأشرت لهما إليه فشدا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه، وهما ابنا عفراء».

فهل وجد جيل فى العالم مثل هذا الجيل، بلغ فى التضحية فى سبيل الله وابتغاء رضوانه وطمعا فى جنته وخوفا من ناره كما بلغ هذا الجيل العظيم الذى رباه رسول الله ﷺ.

ولعل فى الأمثلة التالية من صبر الصحابة وتحملهم الأذى وثباتهم على دعوة الله حرصا على السعادة الأبدية، ما يجعلك عل اليقين الذى ما بعده يقين، أن تربية الرسول ﷺ كانت أعظم تربية ربانية فى تاريخ الانسان. هدفها رضوان الله دون مطمح آخر:

(أ) أرى خباب بن الأرت عمر بن الخطاب ظهره وفيه آثار تعذيب المشركين له فقال عمر: ما رأيت كاليوم. قال خباب: أوقدوا لى نارا فما أطفأها إلا ودك ظهرى » أى دهنه.

(ب) وقال أبو ذر:

قلت: يا رسول الله.. إنى أريد أن أظهر دينى. فقال رسول الله: أخاف عليك أن تقتل ، قلت: لابد منه وإن قتلت.

قال: فسكت عنى فجئت وقريش حلقا يتحدثون فى المسجد فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

فانتفضت الحلق فقاموا فضربونى حتى تركونى كأنى نصب أحمر، وكانوا يرون أنهم قد قتلونى، فأفقت فجئت إلى رسول الله ﷺ فرأى ما بى من الحال فقال لى: ألم أنهك؟ فقلت: يا رسول الله.. كانت حاجة فى نفسى قضيتها ».

(جـ) عن أبى رافع قال:

وجه عمر بن الخطاب رضى الله عنه جيشا إلى الروم وفيهم رجل يقال له عبد الله بن حذافة من أصحاب النبى ﷺ فأسره الروم، فذهبوا به الى ملكهم فقالوا له: ان هذا من أصحاب محمد - ﷺ - فقال له الطاغية: هل لك أن تتنصر وأشركك فى ملكى وسلطانى؟

فقال له عبد الله: لو أعطيتنى ما تملك وجميع ما ملكته العرب على أن أرجع عن دين محمد ﷺ طرفة عين ما فعلت.

قال: إذن أقتلك.

قال: أنت وذاك. فأمر به فصلب.

وقال للرماة: ارموه قريبا من يديه قريبا من رجليه، وهو يعرض عليه وهو يأبى، ثم أمر به فأنزل، ثم دعا بقدر فصب فيها ماء حتى احترقت، ثم دعا بأسيرين من المسلمين فأمر بأحدهما فألقى فيها وهو يعرض عليه النصرانية وهو يأبى ، ثم أمر به أن يلقى فيها فلما ذهب به بكى، فقيل له: إنه قد بكى ، فظن أنه جزع فقال:

ردوه، فعرض عليه النصرانية فأبى.

فقال: ما أبكاك إذن؟

فقال: أبكانى أنى قلت فى نفسى: تلقى الساعة فى هذا القدر فتذهب فكنت أشتهى أن يكون بعدد كل شعرة فى جسدى نفس تلقى فى الله.

فقال الطاغية: هل لك أن تقبل رأسى وأخلى عنك؟

قال له عبد الله: وعن جميع أسارى المسلمين؟

قال: وعن جميع أسارى المسلمين.

قال عبد الله: فقلت فى نفسى عدو من أعداء الله أقبل رأسه يخلى عنى وعن أسارى المسلمين لا أبالى، فدنا منه فقبل رأسه فدفع إليه الأسارى، فقدم بهم على عمر رضى الله عنه فأخبر عمر بخبره فقال عمر:

حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة، وأنا أبدأ فقام عمر فقبل رأسه.

(د) وعن عثمان رضى الله عنه قال:

بينما أنا أمشى مع رسول الله ﷺ بالبطحاء إذ بعمار وأبيه وأمه يعذبون فى الشمس ليرتدوا عن الإسلام فقال أبو عمار: يا رسول الله.. الدهر هكذا. فقال: صبرا يا آل ياسر. اللهم اغفر لآل ياسر. وقد فعلت، وفى رواية: صبرا يا آل ياسر صبرا يا آل ياسر.. فان موعدكم الجنة».

(هـ) وعن أبى الأسود قال:

... وكان عم الزبير يعلق الزبير فى حصير ويدخن عليه بالنار وهو يقول: ارجع الى الكفر. فيقول الزبير: لا أكفر أبدا.

ترى أيمكن أن يكون هذا التفانى فى طلب رضوان الله إلا ثمرة من ثمار نبى؟

أو يمكن أن يستطيع كذاب على الله أن يجعل أصحابه فى هذه الدرجة من الرغبة فى نيل رضوان الله؟ إن من المعروف أن فاقد الشئ لا يعطيه، إن الرجل الذى يكذب عل الله لا يؤمن به ولا يؤمن باليوم الآخر الذى أعده، فلا يستطيع أن ينقل الناس الى هذه الحال من الايمان، لولا أنه أعلى فى هذا الموضوع منهم بكثير. فلقد نقل رسول الله ﷺ الناس الى حال الرهبة من الله بشكل لا نرى مثله الا عند نبى.

فأعطاهم اليوم الآخر حسا رقيقا مرهفا. اذا وقع أحدهم فى المعصية جاد بنفسه من أجل التخلص من آثارها، وترفعوا عن الشهوات والدنايا واحتقروا مظاهر الحياة الفانية، حتى أن أحدهم أصبح ولا تساوى الدنيا عنده شيئا يذكر، فأصبحت الفضيلة لهم عادة ، والأمانة عندهم محترمة، وكلمتهم عهدا. وكل ذلك حرصا على رضوان الله وطلبا لجنته وخوفا من ناره.

(أ) روى الامام مسلم:

«أن ماعز بن مالك الأسلمى أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله.. انى ظلمت نفسى وزنيت، وإنى أريد أن تطهرنى، فرده. فلما كان من الغد أتاه فقال: يا رسول الله.. إنى زنيت، فرده الثانية. فأرسل رسول الله ﷺ الى قومه فقال: أتعلمون بعقله بأسا؟ تنكرون منه شيئا؟ فقالوا: ما نعلمه إلا وفى العقل من صالحينا فيما نرى، فأتاه الثالثة فأرسل اليهم أيضا فسأل عنه فأخبروه أنه لا بأس به ولا بعقله، فلما كانت الرابعة حفر له حفرة ثم أمر فرجم.

قال: فجاءت الغامدية فقالت:

يا رسول الله.. إنى قد زنيت فطهرنى.

وأنه ردها فلما كان الغد قالت: يا رسول الله.. لم تردنى؟ لعلك أن تردنى كما رددت ماعزا. فوالله إنى لحبلى. قال: أما لا فاذهبى حتى تلدى، قال: فلما ولدته أتته بالصبى فى خرقة، قالت: هذا قد ولدته.

قال: فاذهبى فأرضعيه حتى تفطميه، فلما فطمته أتته بالصبى فى يده كسرة خبز فقالت: هذا يا نبى الله.. قد فطمته وقد أكل الطعام، فدفع الصبى إلى رجل من

المسلمين ثم أمر فحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها فاستقبلها خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فنضح الدم على وجه خالد فسبها فسمع نبى الله سبه إياها فقال:

«مهلا يا خلد.. فوالذى نفسى بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له. ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت».

(ب) حدث الطبرى قال:

«لما هبط المسلمون المدائن وجمعوا الأقباض، أقبل رجل بحق معه فدفعه إلى صاحب الأقباض فقال والذين معه: ما رأينا مثل هذا قط ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه فقالوا: هل أخذت منه شيئا؟ فقال: أما والله لولا الله ما أتيتكم به.

فعرفوا أن للرجل شأنا فقالوا: من أنت؟ فقال: لا والله لا أخبركم لتحمدونى ولا غيركم ليقرظونى. ولكنى أحمد الله وأرضى بثوابه، فأتبعوه رجلا حتى انتهى الى أصحابه فسأل عنه فإذا هو عامر بن عبد قيس».

(جـ) أرسل سعد قبل القادسية ربعى بن عامر رسولا الى رستم قائد الجيوش الفارسية وأميرهم فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق والزرابى الحرير وأظهر اليواقيت واللآلئ الثمينة العظيمة، وعليه تاج وغير ذلك من الأمتعة الثمينة، وقد جلس على سرير من ذهب.

ودخل ربعى بثياب صفيقة وترس وفرس قصيرة، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد وأقبل عليه سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه فقالوا له: ضع سلاحك.

فقال: إنى لم آتكم، وإنما جئتكم حين دعوتمونى، فإن تركتمونى هكذا، وإلا رجعت.

فقال رستم: ائذنوا له. فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها.

فقالوا له: ما جاء بكم؟

فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان الى عدل الإسلام.

(د) هم فضالة بن عمير بن الملوح أن يقتل رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت فلما دنا منه قال رسول الله ﷺ: أفضالة؟ قال: نعم فضالة يا رسول الله. قال: ماذا كنت تحدث به نفسك؟

قال: لاشئ.. كنت أذكر الله.

فضحك النبى ﷺ ثم قال: استغفر الله، ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه، وكان فضالة يقول:

والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما خلق الله شيئا أحب إلى منه.

قال فضالة: فرجعت إلى أهلى فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها فقالت: هلم الى الحديث.

فقلت: يأبى الله عليك والإسلام.

(هـ) عن أبى موسى قال:

انتهينا إلى النجاشى وهو جالس فى مجلسه وعمرو بن العاص عن يمينه وعمارة عن يساره والقسيسون جلوس سماطين وقد قال عمرو وعمارة: إنهم لا يسجدون لك، فلما انتهينا بدرنا من عنده من القسيسين والرهبان: اسجدوا للملك، فقال جعفر: لا نسجد إلا لله.

إنه بمحمد رسول الله ﷺ أصبح الضمير يقظا على اليوم الآخر، لا يغفل عنه، فاستقام بذلك عمود الحياة كلها. اليوم الآخر الذى دعا إليه كل المرسلين وغفل عنه كل الناس وهو أهم قضايا الانسان لأنها قضية مصيره ويجعلها الانسان أبسط قضاياه لغلبة الحس بالدنيا عليه حتى اذا مات الانسان وانكشف له صدق الرسل فيما أخبروا عنه ندم ولات حين مناص.

وإحياء الإنسان بهذه الذكرى وإحياء هذه الحقيقة فى قلب الإنسان هى الثمرة الثانية من ثمرات رسول الله ﷺ وإنها لثمرة نبوة لا ثمرة كذابين مدعين، ولا يستطيع العقل أن يتصور إلا هذا.

ثالثا - إنسانية واحدة كريمة:

وجاء محمد رسول الله ﷺ ونظرة الناس بعضهم إلى بعض ما يلى:

١- فى الهند:

لم يعرف فى تاريخ أمة من الأمم نظام طبقى أشد قسوة، وأعظم فصلا بين طبقة وطبقة، وأشد استهانة بشرف الانسان من النظام الذى اعترفت به الهند دينيا ومدنيا وخضعت له آلافا من السنين ولا تزال، وقد بدت طلائع التفاوت الطبقى فى آخر العهد الويدى، بتأثير الحرف والصنائع وتوارثها، أو بحكم المحافظة على خصائص السلالة الآرية المحتلة ونجابتها. وقبل ميلاد المسيح بثلاثة قرون ازدهرت فى الهند الحضارة البرهمية، ووضع فيها مرسوم جديد للمجتمع الهندى. وألف فيه قانون مدنى وسياسى اتفق عليه فى البلاد، وأصبح قانونا رسميا ومرجعا دينيا فى حياة البلاد ومدنيتها وهو المعروف الآن بـ «منوشاستر».

يقسم هذا القانون أهل البلاد الى أربع طبقات متمايزة وهى:

١- البراهمة: طبقة الكهنة ورجال الدين. ٢- شترى: رجال الحرب.

٣- ويش: رجال الزراعة والتجارة. ٤- شودر: رجال الخدمة.

ويقول «منو» مؤلف هذا القانون:

«إن القادر المطلق قد خلق لمصلحة العالم البراهمة من فمه. وشترى من سواعده. وويش من أفخاذه. والشودر من أرجله. ووزع لهم فرائض وواجبات لصلاح العالم. فعلى البراهمة تعليم ويد، أو تقديم النذور للآلهة، وتعاطى الصدقات. وعلى الشترى حراسة الناس، والتصدق وتقديم النذور ودراسة ويد، والعزوف عن الشهوات. وعلى ويش رعى السائمة، والقيام بخدمتها، وتلاوة ويد والتجارة والزراعة. وليس لشودر إسيلا خدمة هذه الطبقات الثلاث.

وقد منح هذا القانون طبقة البراهمة امتيازات وحقوقا فقد قال: إن البراهمة هم صفوة الله، وهم ملوك الخلق، وأن ما فى العالم هو ملك لهم، فإنهم أفضل الخلائق، وسادة الأرض، لأن العبد لا يملك شيئا، وكل ماله لسيده، وأن البرهمى الذى يحفظ رك ويد «الكتاب المقدس» هو رجل مغفور له ولو أباد العوالم الثلاثة. بذنوبه وأعماله،

ولا يجوز للملك حتى فى أشد ساعات الاضطراب والفاقة أن يجبى من البراهمة جباية، أو يأخذ منهم أتاوة، ولا يصح لبرهمى فى بلاده أن يموت جوعا، وأن استحق برهمى القتل لم يجز للحاكم إلا أن يحلق رأسه ، أما غيره فيقتل.

أما الشترى فانهم وإن كانوا فوق الطبقتين «ويش وشودر» ولكنهم دون البراهمة بكثير. يقول «منو»: إن البرهمى الذى هو فى العاشرة من عمره يفوق الشترى الذى ناهز مائة كما يفوق الوالد ولده.

أما شودر «المنبوذون» فكانوا فى المجتمع الهندى – بنص هذا القانون المدنى الدينى – أحط من البهائم، وأذل من الكلاب، فيصرح القانون بأن من سعادة «شودر» أن يقوموا بخدمة البراهمة وليس لهم أجر وثواب بغير ذلك، وليس لهم أن يقتنوا مالا، أو يدخروا كنزا، فان ذلك يؤذى البراهمة، وإذا مد أحد من المنبوذين الى برهمى يدا أو عصا ليبطش به، قطعت يده، وإذا رفسه فى غضب فدعت رجله، وإذا هم أحد من المنبوذين أن يجالس برهميا فعلى الملك أن يكوى استه وينفيه من البلاد، وأما إذا مسه بيده أو سبه فيقطع لسانه، وإذا ادعى أنه يعلمه سقى زيتا فائرا، وكفارة قتل الكلاب والقطة والضفدعة والوزغ والغراب والبومة ورجل من الطبقة المنبوذة سواء».

٢- فى فارس:

وكانت الأكاسرة ملوك فارس يدعون أنه يجرى فى عروقهم دم الهى، وكان الفرس ينظرون اليهم كآلهة، ويعتقدون أن فى طبيعتهم شيئا علويا مقدسا يدعون أنه يجرى فى عروقهم، فكانوا يكفرون لهم وينشدون الأناشيد بألوهيتهم، ويرونهم فوق القانون، وفوق الانتقاد، وفوق البشر ولا يجرى اسمهم على لسانهم، ولا يجلس أحد فى مجالسهم، ويعتقدون أن لهم حقا على كل لسان، وليس لأنسان حق عليهم، وأن ما يرضخون لأحد من فضول أموالهم وفتات نعيمهم إنما هو صدقة وتكرم من غير استحقاق.

كما يعتقدون أن طبقة البيوتات الروحية والأشراف فوق العامة فى طينتهم، وفوق مستوى الناس فى عقولهم ونفوسهم، ويعطونهم سلطة لا حد لها، ويخضعون له خضوعا كاملا يقول «آرتهرسين»:

« كان المجتمع الايرانى مؤسسا على اعتبار الحرف والنسب، وكان بين طبقات المجتمع هوة واسعة لا يقوم عليها جسر ولا تصل بينها صلة، وكانت الحكومة تحظر على العامة أن يشترى أحد منهم عقارا لأمير أو كبير، وكان من قواعد السياسة الساسانية، أن يقنع كل واحد بمركزه الذى منحه نسبه، ولا يستشرف لما فوقه. ولم يكن لأحد أن يتخذ حرفة غير الحرفة التى خلقه الله لها، وكان ملوك إيران لا يولون وضيعا وظيفة من وظائفهم ، وكان العامة كذلك طبقات متميزة بعضها عن بعض تميزا واضحا، وكان لكل واحد مركز محدد فى المجتمع.

وكان فى هذا التفاوت بين طبقات الأمة امتهان للانسانية. يظهر لك جليا فى مجالس الأمراء والأشراف، حيث يقوم الناس على رؤوس الأمراء كأنهم جماد لا حراك بهم، ويجلسون مزجر الكلب.

ثم يبالغون فى تمجيد القومية الفارسية، ويرون أن لها فضلا على سائر الأجناس والأمم ، وأن الله قد خصها بمواهب ومنح لم يشرك فيها أحدا. وكانوا ينظرون الى الأمم حولهم نظرة ازدراء وامتهان، ويلقبونها بألقاب فيها الاحتقار والسخرية.

٣- هذان مثلان يبينان لنا حال العالم فى قضية الإنسان حين البعثة. وليس هما كل شئ فاليونان والرومان كل واحدة منهما كانت ترى غيرها برابرة، وهى وحدها نموذج النوع الإنسانى العالى، وكنت ترى هذا الشعور بالأفضلية حتى على مستوى القبيلة ، حتى على مستوى الأسرة، ولم يكن يخطر ببال قضية الإنسانية الواحدة..

٤- وما لنا نذهب بعيدا فحتى الآن نرى:

أن هتلر يعتبر الشعب الجرمانى أعظم شعوب الدنيا، وله حق سيادة العالم.

والشعب الأمريكى لا يزال يعامل السود معاملة احتقار وازدراء وامتهان، ولا يعترف لأسود بحق لدرجة أن سينما البيض لا يدخلها سود. ومطعم البيض لا يدخله سود، ومدرسة البيض لا يدخلها سود. وفى جنوب افريقيا الأسود أحقر عند البيض من الكلب.

بل أكثر من هذا بقيت الكنيسة النصرانية فترة طويلة فى أفريقيا لا ترى أن الرجل الأسود أهل لأن يكون قسيسا، وأخيرا تظهر الطبقية بشكل آخر: رأسمالية - بورجوازية - بروليتاريا.

هذا بشكل عام، فإذا ما نظرنا إلى المسألة من زاوية أخرى، زاوية أن الإنسانية رجل وامرأة، وكل منهما إنسان، فانك تجد ولا تزال تجد مثل هذه الصور:

فى القرن السادس الميلادى كانت بعض المجامع الكنسية تبحث: هل المرأة إنسان أو حيوان؟

وكان العرب يئدون بناتهم حتى قال صعصعة بن ناجية:

جاء الاسلام وقد فديت ثلاثة مائة موؤدة.

وكان الهنود إذا مات الرجل حرموا على زوجته أن تتزوج وأهانوها حتى أصبحت عادة عندهم أن تحرق المرأة نفسها إذا مات زوجها لتتخلص مما يصيبها بعد موته، وقد يحدث عندهم أن يخسر الرجل زوجته فى القمار، وفى كل مكان ليس للمرأة شخصيتها الحقوقية المستقلة.

وحتى الآن تجد أن القانون الفرنسى لا يسمح للمرأة أن تتصرف فى أموالها إلا بإذن زوجها، والقانون الإنجليزى لا يسمح لها بتغيير اسمها إلا باذن زوجها، أما هو فحر..

وإذا نظرنا إلى الإنسانية من وجه آخر. وجه الأحرار والعبيد، فإننا نجد صورا من البشاعة فى معاملة الرقيق لا تصور، الرقيق ليس له حق حياة ولا كرامة ولا يوجد شعور أصلا بإنسانيته.

هذا كله وبعض منه كما رأينا لا يزال.

فماذا فعل محمد رسول الله ﷺ بأمر من الله ووحى؟

لقد أعلن محمد رسول الله ﷺ وحقق عمليا انسانية الإنسان، ووحدة الإنسانية، وكرامة الإنسان، الرجل إنسان، والمرأة إنسان، والعبد انسان، والناس كلهم سواء فى هذه الإنسانية، فلا شعب أعلى من شعب، ولا جنس أعظم من جنس.

وفى ذلك يقول صاحب كتاب «هذا الدين»:

«من العصبية القبلية بل عصبية العشيرة بل عصبية البيت، التى كانت تسود الجزيرة، ومن عصبية البلد، وعصبية الوطن، وعصبية اللون، وعصبية الجنس، التى كانت تسود وجه الأرض كله..

من هذه العصبيات الصغيرة التى لم تكن البشرية تتصور غيرها فى ذلك الزمان، جاء الاسلام ليقول للناس:

إن هناك إنسانية واحدة، ترجع الى أصل واحد، وتتجه إلى إله واحد. وأن اختلاف الأجناس والألوان، واختلاف الرقعة والمكان، واختلاف العشائر والآباء.. كل أولئك لم يكن ليتفرق الناس ويختصموا، ويتحوصلوا وينعزلوا، ولكن ليتعارفوا ويتآلفوا. وتتوزع بينهم وظائف الخلافة فى الأرض، ويرجعوا بعد ذلك الى الله الذى ذرأهم فى الأرض واستخلفهم فيها.

وقال لهم الله سبحانه فى القرآن الكريم:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ [النساء: ١].

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾ [الروم: ٢٢].

ولم تكن هذه مبادئ نظرية ولكنها كانت أوضاعا عملية.

لقد انساح الإسلام فى رقعة من الأرض فسيحة، تكاد تضم جميع الأجناس وجميع الألوان.. وذابت كلها فى النظام الإسلامى. ولم تقف وراثة لون، ولا وراثة جنس، ولا وراثة طبقة، ولا وراثة بيت، دون أن يعيش الجميع إخوانا، ودون أن يبلغ كل فرد مهم ما تؤهله له استعداداته الشخصية، وما تكفله له صفة الانسان.

واستقر هذا الخط العريض فى الأرض، بعد أن كان غريبا فيها، أشد الغرابة، ومستنكرا فيها كل الاستنكار – وحتى بعد انحسار المد الاسلامى، لم تستطع البشرية أن تتنكر له كل التنكر، ولم تعد تستغربه كل الاستغراب.

حقيقة: إنها لم تستطع أن تتمثله كما تمثلته الجماعة المسلمة، ولم يستقر فيها استقراره فى المجتمع الإسلامى.

وحقيقة: إن عصبيات شتى صغيرة ما تزال تعيش، عصبيات الأرض والوطن، وعصبيات الجنس والقوم، وعصبيات اللون واللسان.

وحقيقة: إن الملونين فى أمريكا وجنوب أفريقيا يؤلفون مشكلة حادة بارزة، كما يؤلفون مشكلة ناعمة مستترة فى أوروبا كلها.

ولكن فكرة الانسانية الواحدة ما تزال خطا عريضا فى هتافات البشرية اليوم، وما يزال هذا الخط الذى خطه الإسلام هو أصل التفكير البشرى – من الناحية النظرية – وما تزال تلك العصبيات الصغيرة تبزغ وتختفى، لأنها ليست أصيلة ولا قويمة.

وجاء الإسلام والكرامة الانسانية وقف على طبقات معينة، وعلى بيوت خاصة، وعلى مقامات معروفة. أما الغثاء – غثاء الجماهير – فهو غثاء لا وزن له ولا كرامة .. غثاء!!

وقال الإسلام كلمته المدوية: ان كرامة الإنسان مستمدة من إنسانيته ذاتها، لا من أى عرض آخر كالجنس، أو اللون، أو الطبقة، أو الثروة، أو المنصب، الى آخر هذه الأعراض العارضة الزائلة.. والحقوق الأصيلة للإنسان، مستمدة إذن من تلك الإنسانية التى ترجع الى أصل واحد كما أسلفنا.

وقال لهم الله فى القرآن الكريم:

﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** ﴾ [الاسراء: ٧٠].

﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾ [البقرة: ٣٠]

﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ** ﴾ [البقرة: ٣٤].

﴿ **وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ** ﴾ [الجاثية: ١٣]

وعلم الناس منذئذ:

أن الإنسان – بنوعه – كريم على الله، وأن كرامته ذاتية أصيلة. لا تتبع جنسه، ولا لونه، ولا بلده، ولا قومه، ولا عشيرته، ولا بيته. ولا عرضا من هذه الأعراض الزائلة الرخيصة.

إنما تتبع كونه إنسانا من هذا النوع الذى أفاض عليه ربه الكريم. ولم تكن هذه المبادئ نظرية، إنما كانت واقعا عمليا، تمثل فى حياة الجماعة المسلمة، وانساحت به فى أرجاء الأرض، فعلمته للناس، وأقرته فى أوضاع حياتهم، كذلك وعلمت جمهور الناس.. ذلك الغثاء.. أنه كريم، وأن له حقوقا، هى حقوق الإنسان، وأن له أن يحاسب حكامه وأمراءه، وأن عليه ألا يقبل الذل والضيم والمهانة. وعلمت الحكام والأمراء ألا تكون لهم حقوق زائدة على حقوق الجماهير من الناس - وأنه ليس لهم أن يهينوا كرامة أحد ممن ليس بحاكم أو أمير.

وكان هذا ميلادا جديدا «للإنسان» ميلادا أعظم من الميلاد الحسى.

فأى إنسانية لإنسان إذا لم تكن له حقوق الإنسان، وكرامة الإنسان، وإذا لم تكن تلك الحقوق متعلقة بوجوده ذاته، وبحقيقته التى لا تتخلف عنه فى حال من الأحوال؟

بدأ أبو بكر رضى الله عنه عهده بقوله:

«لقد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى. وإن أسأت فقومونى. أطيعونى ما أطعت الله ورسوله. فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم».

وخطب عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال يعلم الناس حقوقهم تجاه الأمراء:

«يا أيها الناس.. إنى والله ما أرسل إليكم عمالا ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا من أموالكم. ولكنى أرسلهم اليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم. فمن فعل به شئ من ذلك فليرفعه إلى. فوالذى نفس عمر بيده، لأقصنه منه.. فوثب عمرو بن العاص فقال:

«يا أمير المؤمنين.. أرأيتك إن كان رجل من أمراء المسلمين على رعيته فأدب بعض رعيته، إنك لتقتص منه»؟

قال عمر: «أى والذى نفس عمر بيده لأقصنه منه. وكيف لا أقص منه وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص منه نفسه. ألا لا تضربوا الناس فتذلوهم ولا تجمروهم فتفتنوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم».

وكتب عثمان رضى الله عنه كتابا إلى جميع الأمصار قال فيه:

«إنى آخذ عمالى بموافاتى كل موسم قد سلطت الأمة على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فلا يرفع على شئ ولا على أحد من عمالى إلا أعطيته. وليس لى ولا لعمالى حق قبل الرعية إلا متروك لهم. وقد رفع إلى أهل المدينة أن أقواما يشتمون ويضربون. فمن ادعى شيئا من ذلك فليواف الموسم، يأخذ حقه حيث كان منى أو من عمالى، أو تصدقوا، إن الله يجزى المتصدقين».

والمهم - كما أسلفنا - أن هذه لم تكن مجرد مبادئ نظرية أو مجرد كلمات تقال.

فقد طبقت تطبيقا واقعيا، وسرت فى أوساط الشعوب حتى اتخذت قاعدة للأوضاع العملية.

وحادثة ابن القبطى الذى سابق ابن عمرو بن العاص، فاتح مصر وواليها، فسبقه فضربه ابن عمرو، فشكا أبوه الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأقصه منه فى موسم الحج وعلى ملأ من الناس.. حادثة معروفة.

وقد اعتاد الكتاب أن يقفوا فيها عند عدل عمر.. ولكن الحادثة أوسع دلالة على ذلك التيار التحررى الذى أطلقه الإسلام فى ضمائر الناس وفى حاجاتهم.

فمصر إذ ذاك بلد مفتوح. حديث عهد بالفتح الإسلامى. وهذا القبطى لم يزل على دينه فردا من جماهير البلد المفتوحة. وعمرو بن العاص هو فاتح هذا الإقليم، وأول أمير عليه من قبل الإسلام.. وحكام هذا الإقليم قبل الفتح الإسلامى هم الرومان:

أصحاب السياط التى تجلد ظهور شعوب المستعمرات، ولعل ذلك القبطى كان ما يزال ظهره يحمل آثار سياط الرومان.

ولكن المد التحررى الذى أطلقه الإسلام فى أنحاء الأرض، أنسى ذلك القبطى سياط الرومان وذلها، وأطلقه إنسانا حرا كريما، يغضب لأن يضرب ابن الأمير ابنه بعد اشتراكهما فى سباق. وهذه أخرى، ثم تحمله هذه الغضبة لكرامة ابنه الجريحة على أن يركب من مصر الى المدينة لا طيارة ولا سيارة ولا باخرة ولا قطارا، ولكن جملا، يخب به ويضع الأشهر الطوال، كل ذلك ليشكو للخليفة.

الخليفة الذى حرره يوم الفتح تحت راية الإسلام، والذى علمه الكرامة بعد أن نسيها تحت وقع سياط الرومان.

وهكذا ينبغى أن نفهم، وأن ندرك عمق المد الإسلامى التحررى. فليست المسألة فقط أن عمر عادل، وأن عدله لا تتطاول اليه الأعناق فى جميع الأزمان.

ولكن المسألة بعد ذلك أن عدل عمر المستمد من الإسلام، ومنهجه ونظامه، انطلق فى الأرض تيارا جارفا محررا مكرما للإنسان.. بصفته «الإنسان».

هذا المستوى الرفيع، لم ترتفع إليه الانسانية قط.. هذا صحيح ولكن هذا الخط العريض الذى خطه الإسلام، فى كرامة الإنسان وحريته وحقوقه تجاه حكامه وأمرائه، قد ترك فى حياة البشر آثارا لاشك فيها. وبعض هذه الآثار هو الذى يدفع بالبشرية اليوم إلى إعلان «حقوق الإنسان».

وحقيقة أن هذا الإعلان لم يأخذ طريقه الواقعى فى حياة البشرية.

وحقيقة أن «الإنسان» ما يزال يلقى المهانة والإذلال والتعذيب والحرمان فى شتى أنحاء الأرض.

وحقيقة أن بعض المذاهب تجعل مقام الإنسان دون مقام الآلة، وتقتل حرية الانسان وكرامته وخصائصه العليا فى سبيل الإنتاج ومضاعفة الدخل، والتفوق فى الإنتاج كل هذا صحيح.

ولكن هذا الخط ما يزال قائما فى مدارك البشرية وتصوراتها ولم يعد غريبا عليها كما كان يوم جاءها الإسلام.

وهذه نماذج من توجيهات السيد الرسول ﷺ فى هذا الباب نذكرها كأمثلة على هديه فى بناء جوانب إنسانية الإنسان:

(أ) كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب.. لينتهين قوم يفتخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان.

(ب) وعن عائشة رضى الله عنها أن فتاة قالت – يعنى للنبى ﷺ – : إن أبى زوجنى من ابن أخيه ليرفع بى خسيسته وأنا كارهة. فأرسل النبى ﷺ إلى أبيها فجعل

الأمر اليها فقالت: يا رسول الله.. إنى أجزت ما صنع أبى ولكن أردت ان أعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شئ.

(جـ) عن معاوية بن سويد بن مقرن قال:

لطمت مولى لنا فهربت ثم جئت قبيل الظهر فصليت خلف أبى فدعاه ودعانى ثم قال للخادم: أمثل منه. فعفا ثم قال: كنا بنى مقرن على عهد رسول الله ﷺ ليس لنا خادم إلا واحدة فلطمها أحدنا فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: أعتقوها. فقيل له: ليس لهم خادم غيرها. فقال: فليستخدموها فإذا استغنوا عنها فليخلوا سبيلها.

(د) وعن المعرور بن سويد قال:

رأيت أبا ذر وعليه حلة وعلى غلامه مثلها فسألته عن ذلك فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: هم إخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه.

(هـ) وكان عمر رضى الله عنه يقول: أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا - يعنى بلالا.

وسنرى إن شاء الله فى الرسالة الثالثة «الإسلام» هذه المعانى بالتفصيل.

هذه ثمرة من ثمرات محمد رسول الله ﷺ وهى ثمرة ما كانت لتكون لو لا أنه رسول الله.

إن بيئة الجزيرة العربية ما كانت لتنبع منها فكرة وحدة الانسانية وكرامتها، بل ما كانت لتخرج إنسانا له رسالة للبشرية عامة. فكل المقدمات ما كانت لتوحى بنتيجة من هذا النوع.

يقول العقاد:

ثم يستمع الناس إلى دعوة من أعماق جزيرة العرب تنادى بنى الإنسان جميعا الى دين واحد وإله واحد وحق واحد:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ [سبأ : ٢٨].

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧].

ويفصل رسول الدعوة آيات الكتاب الذى أنزل إليه فيقول فى تفسير هذه الآيات :

« لا فضل لعربى على أعجمى ولا لقرشى على حبشى إلا بالتقوى » ولو لم يكن من سعة المسافات بين المقدمات، وهذه النتيجة غير هذا الذى أجملناه لكان فيه الكفاية. لكن العجب منه يتضاعف ويتعاظم حين تأتى النتيجة من أعماق الجزيرة العربية حيث مشتجر الأنساب والأعراق على نحو لم يعرف له مثيل بين الأمم والعصبيات، وبقية تبقى بعد ذلك لعجب فوق ذلك العجب المتضاعف المتعاظم فإن الرسول ﷺ الذى نادى بهذه المساواة بين الأصول والأمم، لم يكن دون أحد من أبناء الجزيرة كلها حسبا ونسبا من أبويه الشريفين. بل كان من شرف الأبوة فى الذؤابة التى يعترف بها الكافرون، وهذا الرسول هو الذى يتعلم منه الناس أنهم اذا صلحوا واستقاموا ﴿ فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠١]

رابعا : المسئولية الفردية :

« ذهبت طالبة شابة من جامعة فرانكفورت تقول لمدير الجامعة مستنجدة إن والديها يهددانها بالطرد، ولما سألها عن السبب أجابت : لأنها ستضع مولودا وقالت : إنها لا تعلم اسم أو شخصية والده، لأنه كان يرتدى قناعا حيث إنها ارتكبت الفاحشة فى أيام الكرنفال أو الناشنج، وهذه الحادثة ليست إلا قصة صغيرة تقع أمثالها عشرات الألوف كل سنة فى بلاد الاباحية التى أحيت تقاليد الدعارة الجماعية تحت ستار التطور والتحرر. فكانت أعياد الكرنفال أو الناشنج التى تستمر ثلاثة أيام وفيها تباح كل الأعراض والحرمات، بل إنه من المخالف لآداب التقاليد أن تسير فتاة مع صديقها هذه الليلة أو تسهر زوجة بجانب زوجها. وأيام الاباحة الثلاثة تبدأ رسميا فى الدقيقة ١١ من الساعة ١١ من اليوم ١١ من الشهر ١١ من كل سنة مع تفاوت بسيط فى مواعيدها بين مدينة وأخرى، وفى أثناء هذه المهرجانات بهذه المناسبة تتعرى النساء من كل شئ تقريبا وهن يختلطن بالرجال حيث تجرى الدعارة الجماعية ومن

دون أن يعرف كل رجل ما اسم هذه التى يرافقها ومن دون أن تعرفه هى أيضا، لأن الجميع يحرصون على ارتداء الأقنعة، وفلسفة الألمان فى هذه الاعياد هى أن من حق البشر أن يخطئوا، لأنهم إذا لم يخطئوا فسيرتفعون الى مستوى الآلهة، وهذا غير معقول وأن خطاياهم ستغفر لهم حتما لأن المسيح قد دفع الثمن وصلب من أجلهم، وهم يرددون هذه الفلسفة فى صحفهم ومجالسهم وفى كل مكان».

هذه ثمرة من ثمرات الفكرة النصرانية التى تقول:

إن الانسان خاطئ منذ ولادته، لأن أباه آدم قد ارتكب الخطيئة. وأن المسيح عليه السلام صلب - حسب زعمهم - حتى يكفر عن البشر خطاياهم، فهو قد تحمل خطايا البشر.

وهذه الفكرة معناها أن الانسان مسئول عن أعمال غيره، وغيره مسئول عن أعماله، وبين هذا وهذا تضيع المسئولية الفردية التى يحس بها الإنسان أنه مسئول عن أعماله فقط. صغيرها وكبيرها، وليس مسئولا عن عمل غيره بتاتا.

ويترتب على الفكرة الأولى ناحيتان خطيرتان:

الأولى: أن الإنسان غير طاهر القلب والنفس منذ نشأته بسبب وراثته الخطيئة وهذا يؤثر تأثيرا سيئا فى نظرته لنفسه من حيث إنه كما ورث الخطيئة ولم يخطئ، فسيعتمد على غيره فى حمل خطاياه عنه.

الثانية: أنه ما دام غيره مسئولا عن ذنوبه، فانه لن يبالى بهذه الذنوب. وعندئذ تملأ الخطيئة الأرض، وادرس ما يحدث فى كنائس أمريكا وبريطانيا وغيرهما بالذات تجد مقدار اللامبالاة فى الخطيئة.

وهذا أكثر الأديان أتباعا الآن فى العالم.

توجد عند البراهمة والبوذيين والجينيين - وهى ديانات لها أتباعها الكثر فى العالم عقيدة شبيهة - من حيث سلب مسئولية الانسان الفردية - بالديانة النصرانية.

هذه العقيدة هى عقيدة تناسخ الأرواح، وخلاصة هذه العقيدة أن الروح بعدما تفارق جسدا فى هذه الدنيا تنتقل إلى جسد آخر فى هذه الدنيا نفسها. ولا يكون

هذا الجسد الثانى أو القالب الثانى بكلمة أصح إلا متفقا مع الحياة التى قد أعدها الإنسان لنفسه بأعماله وأفكاره وميوله وعواطفه فى حياته الأولى. فإن كانت أعماله وأفكاره وميوله وعواطفه سيئة ولتأثيرها قد حدثت فيه مؤهلات واستعدادات سيئة، فإن روحه ستنتقل إلى طبقة مبتذلة من طبقات الحيوانات أو النباتات، وأما إن كانت أعماله وأفكاره وميوله وعواطفه صالحة ولتأثيرها حدثت فيه مؤهلات واستعدادات صالحة، فإن روحه سترتقى الى طبقة من الطبقات العليا».

هذه العقيدة مقتضاها أننى أنا الإنسان الحالى، إنسان بهذا الوضع نتيجة لسلوك غيرى، وحصيلة لسلسلة طويلة من أعمال المخلوقات قبلى، وهذه المخلوقات السابقة على ، هى أنا، وأنا بأعمالى الحاضرة سأكون بالتالى نباتا أو حيوانا أو إنسانا. ويحس الإنسان بذاته أنه منقطع الشعور النفسى بما كان.

فماذا ينتج عن هذه العقيدة؟

١- سينتج عن هذه العقيدة شعور لدى الإنسان بأن الحيوان والنبات والإنسان سواء فى ميدان الوجود، اذ الحيوان كان إنسانا والنبات كان حيوانا. ويترتب على هذا ألا يجوز إيذاء النبات والحيوان والانسان، حتى ولو آذانى الانسان، وعندئذ فإن أمة من هذا النوع تعتقد مثل هذه العقيدة معرضة للفناء والحرمان والاضمحلال، ومثل هذه العقيدة ليست صالحة ولذلك فإن أهلها يعيشون مشتتين بين واقعهم الذى يعملون، وعقيدتهم التى يعتقدون.

٢- كما ينتج عن هذه العقيدة رهبانية مميتة عمليا. إذ أن أهل هذه العقيدة يعتقدون أن الشهوة هى أصل كل فساد فى الأرض وهى التى تلوث الروح بالذنوب والآثام، ولأجلها تنتقل الروح من قالب إلى قالب وتذوق وبال أعمالها مرة بعد مرة، فالإنسان إذا أودى بها، وقضى عليها، ولم يشغل نفسه بمشاغل الدنيا وشواغبها، فلروحه أن تنال الخلاص من دورة التناسخ. ويقولون:

ليست هناك سبيل أخرى للخلاص من دورة التناسخ غير هذه، لأنه من المحال إذا انشغل الانسان بمشاغل الدنيا وشواغبها وشئونها الخلابة أن يأمن على نفسه الافتتان بالدنيا والاسترسال وراء شهواتها وملاهيها. والنتيجة اللازمة لذلك - يقولون - إن من

أراد لنفسه الخلاص من دورة التناسخ فعليه أن ينعزل عن الدنيا، ولا يسكن إلا فى الغابات، ورؤوس الجبال وكهوفها، وأن من لم يفعل ذلك فعليه أن ييأس من الخلاص من دورة التناسخ، ويستعد للانضمام الى طبقات الحيوانات والنباتات.

٣- ولما كانت الفكرة الأولى والثانية غير عمليتين.

فالناس نتيجة لذلك إما أن يسلكوا الطريق المرسوم للخلاص من دورة التناسخ بزعمهم فتفنى البشرية كلها لو سلكت هذا الطريق.

وأما إنسان لن يمشى فى هذا الطريق وهو بالتالى لا يبالى لأنه ليس مسئولا عن حاضره ولا يهمه مستقبله.

ويظهر انعدام المسئولية الفردية عند البشرية بصورة أخرى، كلها غير معقول:

تظهر بصورة أخذ الثأر من أى قريب للقاتل، كما يحدث عند العرب فى الجاهلية، وتظهر بصورة الإيمان بأن الإنسان غير مسئول أمام أحد عند الملحدين الفوضويين، وتظهر بصورة أن الإنسان مسئول أمام القانون فقط فإذا استطاع أن يهرب من عين القانون فعل ما شاء.

وهناك صورة أخرى تنعدم فيها المسئولية موجودة عند اليهود:

فاليهود يعتقدون أنهم شعب الله المختار، الذى غفر له كل شئ، فمهما فعلوه من جرائم أو مآسى، أو مفاسد، أو مظالم، فإن خصوصيتهم هذه تجعلهم بمنجاة من عذاب الله إلا بشكل بسيط جدا جدا.

هذه صور من فرار الإنسان من المسئولية كانت يوم بعث محمد رسول الله ﷺ ولا زالت. وهى كلها صور غير معقولة، وآثارها خطيرة على الإنسان، والحياة الإنسانية كلها، من حيث انعدام مسئولية الإنسان أو قصورها، مما يؤدى إلى انحراف فظيع فى السلوك.

فماذا فعل محمد ﷺ بأمر الله ووحيه:

لقد كان الإعلان الذى أعلنه الإسلام هو أن الإنسان لا يتحمل إلا مسئولية أعماله وحده، فلا يتحمل مسئولية جد ولا مسئولية ذنب أخ وعم، إلا إذا كان له

علاقة فى الموضوع، وأن الجيل اللاحق لا يتحمل أوزار الجيل السابق. وإنما الإنسان مسئول عن أعماله وحده صغيرها وكبيرها أمام الله فى الآخرة، وأمام شريعة الله فى الدنيا فقال القرآن: ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [فاطر: ١٨].

وقال الرسول ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته».

وخاطب القرآن الناس:

﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ ﴾

[النساء: ١٢٣]

فأصبح المسلم يحاسب نفسه على الصغيرة والكبيرة. حتى قال قائل المسلمين: «كنا ندع تسعة أعشار الحلال مخافة الوقوع فى الحرام» وأصبح الذى يقدم الإنسان أو يؤخره هو عمل الإنسان حتى قال رسول الله ﷺ: «يا معشر قريش .. اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئا، يا بنى عبد مناف.. لا أغنى عنكم من الله شيئا، يا عباس بن عبد المطلب.. لا أغنى عنك من الله شيئا، ويا صفية – عمة رسول الله ﷺ – لا أغنى عنك من الله شيئا، ويا فاطمة – بنت محمد ﷺ – سلينى ما شئت من مالى، لا أغنى عنك من الله شيئا» رواه البخارى ومسلم.

وبذلك استقام سلوك الإنسان، وتحرر ضمير الإنسان من التواكل والاعتماد على الآخرين، وبذلك لم يعد الإنسان غير مبال فى أمر الخطيئة، وبذلك استقلت شخصية الإنسان استقلالا تاما، وبذلك أصبح الخير مرجوا من الإنسان، وبذلك قضى على الخرافة، وقامت الحقيقة محلها.

هذه الثمرة العظيمة من ثمار دعوة محمد ﷺ تدل على أن محمدا رسول الله، لأنها ثمرة ما كانت لتكون لولا الوحى، وقد صاغ العقاد هذا الموضوع صياغة عالية نأخذ من فقراتها ما يلى:

«وللديانة الانسانية مناط واحد، هو ضمير كل فرد من أفرادها. فما لم يكن لهذا الضمير حساب، وعليه تبعة، فلا ديانة لإنسان، ولا لجملة الناس. وفكرة التبعة الفردية والمسئولية الفردية بسيطة، سهلة الفهم، تتجدد الحاجة إلى تطبيقها كل يوم، فى كل بيئة اجتماعية، فلو كانت الفكرة تروج بمقدار بساطتها، وسهولة فهمها،

وتجدد الحاجة إلى تطبيقها، لما خلا المجتمع الإنسانى قط من مبدأ المسئولية الفردية منذ أوائل عهد الإنسان بالاجتماع.

لكن الواقع أن هذه الفكرة البسيطة قد أهملت، وظلت مهملة من عهد البداوة الى عهود الحضارة الأولى، لأن محاسبة الفرد لم يكن لها مرجع إلى سلطان واحد، إذ كان الفرد من القبيلة يعتدى على فرد من قبيلة أخرى ويندر أن ترضى قبيلة المعتدى أن تسلمه إلى قبيلة المعتدى عليه. فإن لم تسلمه تضامنت فى الدفاع عنه، ووقعت الحرب بين القبيلتين، أو تعرض كل فرد من أفراد قبيلة المعتدى لأخذ الثأر منه، وقد يتوارثون الثأر إلى الأبناء والأعقاب.

فمضى نظام القبيلة على مسئولية القبيلة كلها من جميع أفرادها، ثم تطورت القبيلة وتألف الشعب من جملة قبائل متعارفة على نظامها القديم فثبتت على عاداتها لصعوبة التغيير فى الجماعات التى تقوم على المحافظة، وعلى رعاية المأثورات السلفية، وبلغ من ثبات هذه العادات أن روما التى كانت تسمى أم الشرائع، جعلت الأب مسئولا عن الأسرة، وأباحت له التصرف فى أرواحها وأموالها. وقد ناظرتها فى الشرق شريعة حمورابى، فجعلت من حق الرجل الذى تقتل ابنته أن يتسلم ابنة القاتل ليقتلها كأنها لا تحسب عندهم إنسانا مستقلا بحياته.

وكانت فى الهند حضارات تأخذ بمبدأ المسئولية الفردية، ولكنها ترجع بها الى حياة سابقة متسلسلة من حياة سابقة على مدى الأزمنة التى لا تعرف لها بداءة منذ أزل الآزال، فهو مولود بجرائره وآثامه، وكفارة تلك الجرائر والآثام الى الأجل المقدور، وليست تبعاته مرهونة بما يعمله بعد ميلاده. بل هى سابقة للميلاد لاحقة به آمادا بعد آماد».

«كان القول الشائع أن عصيان آدم جريرة لا يسئل عنها وحده بل يسئل عنها كل ولد من ذريته».

أما الدعوة الإسلامية فالمسئولية الفردية فيها شئ جديد كل الجدة لم يتطور مما تقدمه ولم يكن نتيجة قط لإحدى هذه المقدمات.

ومعجزة المعجزات فيها أنها قامت بالمسئولية الفردية حيث يصدرها كل عرف قائم، ويعوقها كل نظام مصطلح عليه فى المعاملات والعقوبات.

قامت بها فى أعماق الجزيرة العربية، ولا قانون فيها غير قانون الثأر، ولا شريعة لها غير شريعة القبيلة، وتعلم الناس ﴿ **وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى** ﴾ [النجم: ٣٩] أن جيلا لا يؤخذ بجزيرة أسلافه، ولا يؤخذ خلفاؤه بجريرته.

﴿ **تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [البقرة: ١٣٤].. ﴿ **كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ** ﴾ [الطور: ٢١]

فمرحلة شاسعة لم يعمل فيها تاريخ البشرية كله ما عمله الإسلام وحده، مبتدئا بغير سابقة، بل مبتدئا على الرغم من العوائق والموانع والمناقضات. ولم تكن هذه المرحلة الشاسعة نافلة من نوافل الرأى على حواشى العقيدة، ولكنها هى الفتح الأكبر من فتوح الضمير فى جميع مراحل التاريخ. إذ لا قوام للخلق ولا للدين بغير التبعة، ولا معنى بغير التبعة لتكليف ولا حساب.

خامسا - العدل:

ثمرة خامسة من ثمار محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نتحدث عنها فى هذه الفقرة. تشهد أنه رسول الله ، ولو لا ذلك ما كانت ولا غيرها هذه الثمرة، هى العدل الذى ما عرف تاريخ العالم له مثيلا وسنختار حوادث من حياة رسول الله ﷺ والصحابة الذين رباهم. نرى فيها كيف ارتفعت النفس البشرية بمحمد ﷺ وبهديه إلى آفاق هى أعلى ما يطمح اليه الطامحون على مدى الأزمان والأجيال. ونرى بذلك كيف أن القرآن كان واقعا حيا متمثلا بهذا الجيل الفريد، وكيف أن القرآن يرفع الانسان إلى أعلى آفاق الإنسانية وغيره يدنيه نحو حضيض الحيوانية.

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً** ﴾]النساء: ١٣٥].

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ [المائدة: ٨].

﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ [النساء: ٥٨].

١- أخرج ابن ماجه عن أبى سعيد رضى الله عنه قال: جاء أعرابى الى النبى ﷺ يتقاضاه دينا كان عليه فاشتد عليه حتى قال: أحرج عليك الا قضيتنى. فانتهره أصحابه فقالوا: ويحك.. تدرى من تكلم؟ قال: إنى أطلب حقى. فقال النبى ﷺ: هلا مع صاحب الحق كنتم؟ ثم أرسل الى خولة بنت قيس فقال لها: إن كان عندك تمر فأقرضينا حتى يأتينا تمر فنقضيك. فقالت: نعم بأبى أنت وأمى يا رسول الله. فاقترضه فقضى الأعرابى وأطعمه، فقال: أوفيت.. أوفى الله لك. فقال:

« أولئك خيار الناس إنه لا قدست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متعتع ».

أى من غير أن يصيبه أذى يقلقه ويزعجه. والحديث رواه البزار عن عائشة مختصرا والطبرانى من حديث ابن مسعود رضى الله عنه بإسناد جيد.

٢- وأخرج البخارى عن عروة أن امرأة سرقت فى عهد رسول الله ﷺ فى غزوة الفتح ففزع قومها إلى أسامة بن زيد رضى الله عنه يستشفعونه. قال عروة: فلما كلمه أسامة فيها تلون وجه رسول الله ﷺ وقال: أتكلمنى فى حد من حدود الله.

فقال أسامة: استغفر لى يا رسول الله.

فلما كان العشى قام رسول الله ﷺ خطيبا فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال:

« أما بعد.. فإنما هلك الناس أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذى نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ».

ثم أمر رسول الله ﷺ بتلك المرأة فقطعت يدها فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوجت. قالت عائشة رضى الله عنها: كانت تأتى بعد ذلك فأرفع حاجتها الى رسول الله ﷺ.

٣- أخرج البيهقى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن أبا بكر الصديق - رضى الله عنهم - قام يوم جمعة فقال:

إذا كان بالغداة فأحضروا صدقات الإبل نقسم ولا يدخل علينا أحد إلا باذن. فقالت امرأة لزوجها:

خذ هذا الخطام لعل الله يرزقنا جملا، فأتى الرجل فوجد أبا بكر وعمر قد دخلا إلى الإبل فدخل معهما فالتفت أبو بكر فقال: ما أدخلك علينا؟

ثم أخذ منه الخطام فضربه، فلما فرغ أبو بكر من قسم الإبل دعا بالرجل فأعطاه الخطام وقال: استقد - أى اقتص منى كما ضربتك فاضربنى - فقال له عمر: والله لا يستقيد.. لا تجعلها سنة. قال أبو بكر: فمن لى من الله يوم القيامة؟ فقال عمر: ارضه. فأمر أبو بكر غلامه أن يأتيه براحلة ورحلها وقطيفة - أى كساء له خمل - وخمسة دنانير فأرضاه بها.

٤- كان الرسول ﷺ قد وكل بتقدير حصة المسلمين فى خيبر عبد الله بن رواحة، وكان أهلها يهودا وفى ذلك يروى البيهقى عن ابن عمر رضى الله عنه حديثا منه:

كان عبد الله بن رواحة رضى الله عنه يأتيهم كل عام فيخرصها - أى يخمنها - عليهم ثم يضمنهم الشطر فشكوا إلى رسول الله ﷺ شدة خرصه وأرادوا أن يرشوه فقال:

يا أعداء الله.. تطعمونى السحت - أى الحرام - والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إلى ولأنتم أبغض الى من عدتكم من القردة والخنازير ولا يحملنى بغضى اياكم وحبى اياه على أن لا أعدل عليكم. فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض».

٥- أخرج ابن عساكر وسعيد بن منصور والبيهقى عن الشعبى قال: كان بين عمر وبين أبى بن كعب رضى الله عنهما شئ فقال عمر:

«اجعل بينى وبينك رجلا، فجعلا بينهما زيد بن ثابت رضى الله عنه، فأتياه فقال عمر:

أتيناك لتحكم بيننا وفى بيته يؤتى الحكم. فلما دخلا عليه وسع له زيد عن صدر فراشه فقال: هاهنا يا أمير المؤمنين.. فقال له عمر: هذا أول جور جرت فى حكمك، ولكن أجلس مع خصمى، فجلسا بين يديه فادعى أبى وأنكر عمر فقال زيد لأبى: أعف أمير المؤمنين من اليمين وما كنت لأسألها لأحد غيره فحلف عمر ثم أقسم لا يدرك زيد القضاء حتى يكون عمر ورجل من عرض المسلمين عنده سواء».

٦- وأخرج ابن سعد وابن راهويه عن عطاء قال: كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يأمر عماله أن يوافوه بالمواسم فإذا اجتمعوا قال: «يا أيها الناس.. إنى لم أبعث عمالى عليكم ليصيبوا من أبشاركم ولا من أموالكم، إنما بعثتهم ليحجزوا بينكم وليقسموا فيئكم فمن فعل به غير ذلك فليقم» فما قام أحد إلا رجل قام فقال:

يا أمير المؤمنين.. إن عاملك فلانا ضربنى مائة سوط. قال: فيم ضربته؟ قم فاقتص منه، فقام عمرو بن العاص رضى الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين إنك إن فعلت هذا يكثر عليك وتكون سنة يأخذ بها من بعدك. فقال: كيف لا أقيد وقد رأيت رسول الله يقيد من نفسه. قال: فدعنا لنرضيه.

قال: دونكم فأرضوه.. فاقتدى منه بمائتى دينار كل سوط بدينارين».

٧- وأخرج ابن عساكر قال:

كتب عمر بن الخطاب إلى فيروز الديلمى رضى الله عنهما:

«أما بعد.. فقد بلغنى أنه قد شغلك أكل اللباب بالعسل فإذا أتاك كتابى هذا فاقدم على بركة الله فاغز فى سبيل الله» فقدم فيروز فاستأذن على عمر رضى الله عنهما فأذن له فزاحمه فتى من قريش فرفع فيروز يده فلطم أنف القرشى فدخل القرشى على عمر مستدمى فقال له عمر: من فعل بك؟

قال: فيروز.. وهو على الباب.

فأذن لفيروز بالدخول فدخل فقال: ما هذا يا فيروز؟

قال: يا أمير المؤمنين.. إنا كنا حديثى عهد بملك، إنك كتبت إلى ولم تكتب إليه وأذنت لى بالدخول ولم تأذن إليه فأراد أن يدخل فى إذنى قبلى فكان منى ما قد أخبرك.

قال عمر: القصاص.

قال فيروز: لابد؟

قال: لابد.

فجثى فيروز على ركبتيه وقام الفتى ليقتص منه فقال له عمر رضى الله عنه:

على رسلك أيها الفتى حتى أخبرك بشئ سمعته من رسول الله ﷺ ، سمعت رسول الله ﷺ ذات غداة وهو يقول: قتل الليلة الأسود العنسى الكذاب قتله العبد الصالح فيروز الديلمى. أفتراك مقتصا منه بعد أن سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال الفتى: قد عفوت عنه بعد أن أخبرتنى عن رسول الله ﷺ بهذا. فقال فيروز لعمر: أفترى هذا مخرجى مما صنعت إقرارى له وعفوه غير مستكره؟ قال: نعم. قال فيروز: فأشهدك أن سيفى وفرسى وثلاثين ألف من مالى هبة له».

٨- وأخرج الطبرى عن إياس بن سلمة عن أبيه قال: «مر عمر بن الخطاب فى السوق ومعه الدرة فخفقنى بها خفقة فأصاب طرف ثوبى فقال: أمط عن الطريق. فلما كان فى العام المقبل لقينى فأخذ بيدى فانطلق بى إلى منزله فأعطانى ست مائة درهم وقال: استعن بها على حجك واعلم أنها بالخفقة التى خفقتك. قلت: يا أمير المؤمنين.. ما ذكرتها.

قال: ما نسيتها».

٩- أخرج المحب الطبرى فى مناقب العشرة قال:

كان لعثمان عبد فقال له: إن كنت عركت أذنك فاقتص منى فأخذ بأذنه ثم قال عثمان: اشدد.. يا حبذا قصاص فى الدنيا لا قصاص فى الآخرة.

١٠- وأخرج ابن عساكر عن على بن ربيعة قال: جاء جعدة بن هبيرة إلى على رضى الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين.. يأتيك الرجلان أنت أحب إلى أحدهما من نفسه - أو قال: من أهله وماله - والآخر لو يستطيع أن يذبحك لذبحك، فتقضى لهذا على هذا. قال: فلهزه على رضى الله عنه وقال: إن هذا شئ لو كان لى فعلت ولكن إنما ذا شئ لله.

١١- وأخرج الترمذى والحاكم عن الشعبى قال: خرج على بن أبى طالب الى السوق فإذا هو بنصرانى يبيع أدرعا فعرف على رضى الله عنه الدرع فقال: هذه درعى.. بينى وبينك قاضى المسلمين. وكان قاضى المسلمين شريحا - كان على استقضاه - فلما رأى شريح أمير المؤمنين قام من مجلس قضائه وأجلس عليا فى مجلسه وجلس شريح قدامه الى جنب النصرانى فقال على:

اقض بينى وبينه يا شريح. فقال شريح:

ما تقول يا أمير المؤمنين؟ فقال على: هذه درعى وقعت منى منذ زمان. فقال شريح: ما تقول يا نصرانى؟

فقال النصرانى: ما أكذب أمير المؤمنين.. الدرع درعى.

فقال شريح: ما أرى أن تخرج من يده، فهل من بينة؟

فقال على: صدق شريح.

فقال النصرانى: أما أنا فأشهد أن هذه أحكام الأنبياء. أمير المؤمنين يجئ إلى قاضيه، وقاضيه يقضيه على؟.. هى والله يا أمير المؤمنين درعك اتبعتك وقد زالت عن جملك الأورق فأخذتها فإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.

فقال على:

أما إذ أسلمت فهى لك - وحمله على فرس - .

١٢- وأخرج أبو نعيم فى «الحلية» عن الحارث بن سويد قال: كان المقداد بن الأسود رضى الله عنه فى سرية فحصرهم فعزم الأمير أن لا يجشر أحد دابته - أى لا يخرجها للمرعى - فجشر رجل دابته لم تبلغه العزيمة فضربه فرجع الرجل يقول: ما رأيت كما لقيت اليوم قط. فمر المقداد فقال: ما شأنك. فذكر له قصته فتقلد السيف وانطلق معه حتى انتهى إلى الأمير فقال: أقد من نفسك. فأقاده فعفا الرجل فرجع المقداد وهو يقول: «لأموتن والاسلام عزيز».

إن هذا العدل الذى رأينا بعض نماذجه فيما مضى، إنما كان وليد دعوة السيد الرسول ﷺ وإلا فان العرب قبل كان شعارهم: «انصر أخاك ظالما أو مظلوما» وإن الانسان ليعجب كيف تمثل أصحاب رسول الله ﷺ هذا العدل بهذه السرعة، وبهذا العمق، بحيث إنهم غلبوا أمما، وسيطروا عليها. فساسوها سياسة عادلة لا مثيل لها، مما أدى بهذه الشعوب أن تدخل فى الاسلام أفواجا بمجرد أن رأوا معاملة هؤلاء الفاتحين الذين لا يغلبون، العادلين الذين لا يجورون.

وعلى الرغم من تضاؤل جيل الصحابة بالنسبة لرقعة الأرض المفتوحة، فان قوة

الحياة التى صبتها تربية الرسول ﷺ فى قلوب الأصحاب، كانت كافية لأن تجعل الأمور تمشى فى طريقها المستقيم.

وحتى بعد ذلك، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فان قضاة الإسلام المتحققين بالاسلام علما وعملا. هم الذين يضربون أبدا المثل الأعلى فى العدل الربانى العظيم، الذى يتضاءل بجانبه كل قضاء.

وأنقل هنا مثلين لقاض من قضاة الدولة العباسية. هو شريك بن عبد الله قاضى الكوفة فى زمن الخليفة المهدى. لنرى فيهما نزاهة القضاء الإسلامى وعدله.

١- قال عمر بن الهياج: كنت من صحابة شريك، فأتيته يوما وهو فى منزله باكرا فخرج الى بفرو ليس تحته قميص عليه كساء، فقلت له: ألا تقوم الى مجلس الحكم؟

قال: غسلت ثيابى أمس فلم تجف فأنا انتظر جفوفها، اجلس. فجلست فجعلنا نتذاكر باب «العبد يتزوج بغير إذن مواليه» فقال: ما تحفظ فيه؟ ما تقول فيه؟

وكانت الخيزران قد وجهت رجلا فى الطراز الى الكوفة وجاء الوالى عيسى بن موسى الأمر بألا يتعرض له، فكان هذا الرجل حر التصرف لا يعصى له أمر، ولا سلطان للأمير عليه.

فخرج علينا ذلك اليوم من زقاق يفضى إلى النخع، ومعه جماعة من أصحابه. عليه جبة خز وطيلسان على برذون فاره، وإذا رجل بين يديه مكتوف فلما مر ببيت القاضى صاح الرجل:

وأغوثاه.. أنا بالله ثم بالقاضى، ففتح شريك الباب وخرج،، فدعا به فإذا ظهره مكشوف وآثار الضرب فيه، فأقعده إلى جنبه وقال له: ما شأنك؟ قال: أنا رجل أطرز وأعمل الوشى، هذه صناعتى، وكراء مثلى مئة فى الشهر. وأخذنى هذا منذ أربعة أشهر قسرا، وحبسنى وألزمنى بالعمل بقوتى، ولا يعطينى أجرا ولى عيال قد ضاعوا، فهربت منه فلحقنى فضربنى وكتفنى. فقال شريك للوكيل: قم فاجلس مع خصمك.

قال: أصلحك الله يا أبا عبد الله.. هذا من خدم السيدة، وهذا أمرها فاحبسه

حتى يشتغل لها. قال: ويلك.. قم فاجلس معه كما يقال لك. فقام فجلس معه. قال:

ما هذه الآثار التى تظهر بظهر هذا الرجل؟ من أثرها به؟ قال: أصلح الله القاضى.. إنما ضربته أسواطا بيدى وهو يستحق أكثر من هذا لأنه لم يشتغل للسيدة. احبسه حتى يشتغل، هذا أمر السيدة.

فألقى شريك رداءه وقام فدخل داره، وأخرج سوطا وضرب بيده على مجامع ثوب الوكيل وقال للرجل:

اذهب إلى أهلك.. وجعل يضرب الوكيل. فهم أعوانه أن يخلصوه فقال: من هاهنا من شباب الحى؟ فجاءه جماعة فقال:

من وقف من هؤلاء فاذهبوا به الى الحبس، فهربوا جميعا وتركوه، وما زال يضربه حتى رأى أن ذلك يكفيه، فتركه فانصرف وهو يهدده بانتقام السيدة، فألقى السوط من يده، وعاد إلى ما كنا فيه من المذاكرة كأنه لم يصنع شيئا وقال لى:

يا أبا حفص.. ما تقول فى العبد يتزوج بغير إذن مواليه؟

وأراد الوكيل أن يركب برذونه فاستعصى عليه، ولم يكن معه من يمسك له الركاب فجعل يضرب البرذون فصاح به شريك:

أرفق به.. ويلك، فإنه أطوع لله منك، فمضى ماشيا، فقال لى شريك: خذ فيما كنا فيه، قلت: ما لنا ولهذا الآن؟ قد فعلت والله فعلة ستكون لها عاقبة مكروهة. من ضرب وكيل الخيرزان فكأنه ضربها، ومن ضربها فكأنما ضرب الخليفة. قال: أعز أمر الله يعزك.

خذ فيما كنا فيه. فعدنا نتذاكر فى مسألة العبد يتزوج بغير إذن مواليه. وذهب الوكيل إلى موسى بن عيسى أمير الكوفة فدخل عليه شاكيا باكيا، وكشف عن ظهره فارتاع الوالى وغضب وقال: من فعل بك هذا؟

قال: شريك.

قال: لا والله ما أتعرض لشريك.

قال: سأشكوك إلى السيدة.

قال: لا أتعرض لشريك. فمضى الوكيل ولم يعد».

٢- وكان موسى بن عيسى أمير الكوفة من كبار أمراء البيت العباسى، وكان له سلطان الإمارة وسلطان النسب، وكان مع ذلك كله يتجنب أن يكون بينه وبين القاضى خلاف، ويبتعد عن طريقه ولا يعارضه فى شئ. ولم ينج مع هذا كله من الخلاف، ولم يختلفا لأن الأمير عرض له فى قضائه بين الناس، ولا لأنه دخل مؤيدا لمدع أو مدعى عليه، بل اختلفا من أجل دعوى أقيمت على الأمير نفسه، وسبب الدعوى أن الأمير أراد أن يوسع داره، وكان الى جنبها بستان نخل لإخوة ورثوه من أبيهم، وكانوا خمسة إخوة وأختا واحدة، فاشترى منهم جميعا إلا الأخت، فإنها أبت أن تبيع فزادها فى الثمن وضاعفه لها أضعافا، وهى تصر على الإباء، فغاظه أن يفسد عليه أمره حمق هذه المرأة وأراد أن يضطرها إلى البيع وكان بينها وبين حصص إخوتها التى باعوها سياج، فبعث غلمانه ليلا فأزالوه. وأصبحت المرأة فرأت نخلها قد اختلط بنخل إخوتها ولم تعد تعرف أرضها من الأرض التى باعوها للأمير. فأقبلت تبكى وتلطم، ولا تدرى ماذا تفعل، وذهبت تكلم الأمير فلم يسمع منها وقال لها:

خذى ثمن الأرض أضعافا.

فقالت: لا أبيعها.. وانطلقت تتوسل إليه بوجوه البلد، فما وجدت منهم مسعفا ولا معينا فقال لها واحد من جيرانها:

أنا أدلك على من يخلص لك حقك. فاستبشرت وابتهجت وقالت: ومن هو؟ قال: القاضى. اذهبى اليه فنادى: أنا بالله ثم بالقاضى، وقصى عليه قصتك.

فذهبت تسأل الناس: أين قصر القاضى؟ فيضحكون منها ويقولون لها: ومتى كان للقاضى قصر؟ اطلبيه فى المسجد أو فى داره، ودلوها على داره فرأت دارا صغيرة من اللبن والطين، ما على بابها حرس، وليس حولها جند. فقالت فى نفسها: أين هذا من قصر الأمير؟ وهمت بالرجوع، ثم أحبت أن تجرب. فقرعت الباب تسأل عنه، فقالت لها امرأته: هو فى مجلس الحكم فى المسجد، فدخلت إلى المسجد تسأل عنه فدلوها عليه، فصاحت: أنا بالله ثم بالقاضى. قال: من ظلمك؟

قالت: الأمير.. موسى بن عيسى.

قال: فيم.. وما دعواك؟ فحكت له قصتها، فأعطاها ورقة بعد أن ختمها وقال لها: امضى بها إلى بابه حتى يحضر معك.

فلما أرادت الدخول على الأمير صاح بها الحاجب: مكانك يا امرأة ماذا تريدين؟

قالت: الأمير.

فأراد إرجاعها فقالت:

إن معى هذه، قال: وما هذه يا امرأة؟ قالت: بطاقة القاضى للأمير فوثب وقال: تقولين إنها بطاقة القاضى، هاتيها لأراها. فلما رآها قال: ويحك.. ولم لم تقولى من أول الأمر إن معك بطاقة القاضى؟ ادخلى. فلما قرأها الأمير أمر بدعوة صاحب الشرطة فلما جاءه قال:

امض إلى شريك فقل له: يا سبحان الله.. ما رأيت أعجب من أمرك؟ امرأة ادعت دعوة لم تصح أعديتها على، فحاول صاحب الشرطة أن يعتذر عن هذه المهمة، فأصر الأمير فأرسل صاحب الشرطة من يأخذ له أغراضه إلى السجن ولما أوصل الرسالة أمر به شريك إلى السجن لأنه يتدخل فى شأن القضاء، فأرسل الأمير الحاجب فسجنه شريك أيضا، فأرسل إليه الأمير وجوه الكوفة للوساطة فسجنهم جميعا ، فجاء الأمير ليلا ففتح باب السجن وأخرجهم جميعا، ولما بلغ من الغد الأمر إلى شريك قال لغلامه:

الحقنى بثقلى الى بغداد، والله ما طلبنا هذا منهم، ولكن أكرهونا عليه وقد ضمنوا لنا الاعزاز فيه اذا تقلدناه لهم، وركب دابته ومضى نحو قنطرة الكوفة فى طريقه الى بغداد، وأخبر الناس الأمير فلحقه وجعل يمشى معه ويقول له:

يا أبا عبد الله.. تثبت، أنظر، دع أعوانى، افتحبس إخوانك؟ إخوانك تحبسهم؟ قال: نعم. لأنهم مشوا لك فى أمر لم يجز لهم المشى فيه، ولست براجع حتى يردوا جميعا إلى الحبس، وإلا مضيت إلى أمير المؤمنين فاستعفيته مما قلدنى. فأمر موسى بردهم جميعا إلى الحبس وهو واقف مكانه، حتى جاءه السجان فقال: قد رجعوا إلى

الحبس. فقال القاضى لغلامه: خذ بلجامه فقده إلى مجلس الحكم، ونودى على المرأة فجاءت فأجلسها معه، فقال الأمير: أنا قد حضرت أفلا تطلق من حبستهم ، قال: أما الآن فنعم، وأمر بإخراجهم من السجن وقال للأمير:

ما تقول يا رجل فيما تدعيه هذه المرأة؟

قال: صدقت.

قال: أتعيد سياجها وترد ما أخذته منها؟

قال: نعم.

قال للمرأة: بقى لك شئ تدعينه؟

قالت: نعم. بيت حارس البستان ومتاعه.

قال: ما تقول؟

قال: أرد ذلك كله.

قال: بقى لك شئ؟

قالت: لا ، وجزاك الله خيرا.

قال: قومى. ووثب فأخذ بيد موسى وأجلسه فى مجلسه وقال له: السلام أيها الأمير.. أتأمر بشئ؟ فضحك وقال: بأى شئ آمر؟ قال: ذاك حق الشرع وهذا حق الأدب.

عدل لا مثيل له، ذلك ثمرة من ثمار محمد ﷺ تدل على أنها ثمرة نبى، إذ ليس لها مصدر سواه تنسب إليه فى أمة لم تهذبها ثقافة سابقة، ولا تجربة قضائية مستمدة، ولا رقابة اجتماعية متعارف عليها.

سادسا - الطاعة المبصرة:

وثمرة سادسة من ثمار سيدنا محمد رسول الله ﷺ تشهد أنها ثمرة نبى ونبوة، هى الطاعة المبصرة، وذلك أن العرب شعب لم يترب على طاعة أحد، ولم يترب على نظام ولا انضباط، وليس لديه مفهوم عن الولاء لحكومة ما، أو الخضوع لها، وأما غير العرب فالأمر عندهم مختلف، طاعة عمياء لملوكهم، ومرؤوسيهم فى كل

شئ. إذا أمروا بالشئ كان خيرا، وإذا نهوا عنه نفسه كان شرا، لا يقال لهم لا، ولا يحاسبون ولا يراقبون.

وحدث ذلك الحدث الضخم، أن الأمة التى لا تعرف النظام، أصبحت منظمة، والتى لا تعرف الطاعة أصبحت مطيعة، ولكنها طاعة من نوع جديد فريد، طاعة بالحق لا بالباطل، بالعدل لا بالظلم لمن يستحق الطاعة لا لمن لا يستحقها، فكان ذلك فتحا جديدا فى تاريخ الوعى عند الشعوب، لدرجة أن العربى الذى كان يتعصب لقريبه وينصره وإن كان على الباطل، ولا يطيع فيه أحدا أبدا صار على ابن عمه إذا كان على الباطل، ويطيع فيه أبعد الناس نسبا عنه فى الحق، والذى كان أبعد الناس عن الانضباط، صار أكثر الناس انضباطا، ومن قرأ تاريخ العرب فى الجاهلية، عرف الفارق الكبير بين ذلك الواقع وواقعهم بعد. وهذه أمثلة من واقعهم بعد تربية الرسول ﷺ إياهم:

(أ) روى ابن جرير بسنده عن ابن زيد قال: دعا رسول الله ﷺ عبد الله بن عبد الله بن أبى: ألا ترى ما يقول أبوك؟ قال: ما يقول بأبى أنت وأمى؟ قال: يقول: لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. فقال: فقد صدق والله يا رسول الله.. أنت والله الأعز وهو الأذل. أما والله لقد قدمت المدينة يا رسول الله وان أهل يثرب ليعلمون ما بها أحد أبر بأبيه منى، ولئن كان يرضى الله ورسوله أن آتيهما برأسه لأتيتهما به. فقال رسول الله ﷺ: لا. فلما قدموا المدينة قام عبد الله بن عبد الله بن أبى على بابها بالسيف لأبيه ثم قال:

«أنت القائل: لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل؟ أما والله لتعرفن العزة لك، أو لرسول الله ﷺ، والله لا يأويك ظله ولا تأويه أبدا إلا بإذن من الله ورسوله».

فقال: يا للخزرج.. ابنى يمنعنى بيتى!

فقال: والله لا يأويه أبدا إلا بإذن منه. فاجتمع إليه رجال فكلموه فقال: والله لا يدخله إلا باذن من الله ورسوله. فأتوا النبى ﷺ فأخبروه فقال: اذهبوا اليه فقولوا له: خله وسكنه. فأتوه فقال: أما إذ جاء أمر النبى ﷺ فنعم.

(ب) ومن كلام لسعد بن معاذ يوم بدر يخاطب به رسول الله ﷺ:

«إنى أقول عن الأنصار وأجيب عنهم.. فأظعن حيث شئت، وصل حبل من شئت، واقطع حبل من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك، والله لئن استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك».

(جـ) ويروى كعب بن مالك قصته مع الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك فيقول فيها:

ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه قال:

«فاجتنبنا الناس – أو قال: تغيروا لنا – حتى تنكرت لى نفس الأرض فما هى الأرض التى أعرف. الى أن قال: حتى إذا طال على من جفوة المسلمين، مشيت حتى تسورت جدار أبى قتادة، وهو ابن عمى وأحب الناس إلى، فسلمت عليه فوالله ما رد على السلام فقلت له:

يا أبا قتادة.. أنشدك بالله، هل تعلمنى أحب الله ورسوله؟ فسكت فعدت فناشدته فسكت، فعدت فناشدته فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار».

ويقول: بينما أنا أمشى فى سوق المدينة إذا نبطى من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول:

«من يدلنى على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له حتى جاءنى، فدفع الى كتابا من ملك غسان، وكنت كاتبا فقرأته فإذا فيه: أما بعد.. فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جافاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا أواسك. فقلت حين قرأتها: وهذه أيضا من البلاء فتيممت بها التنور، فسجرتها» حتى نزلت توبته وكان ما كان.

(د) وللعرب ولع فى الخمر تتحدث عن معاقرتها والاجتماع على شربها

الشعراء، وشغلت جانبا كبيرا من شعرهم وتاريخهم وأدبهم، وكثرت أسماؤها وصفاتها فى لغتهم، وكثر فيها التدقيق والتفصيل كثرة تدعو إلى العجب، وكانت حوانيت الخمارين مفتوحة دائما يرفرف عليها علم يسمى غاية، وشاعت تجارتها عندهم حتى أصبحت كلمة التجارة مرادفة لكلمة بيع الخمر، ومع هذا كله فما يكاد تحريم الخمر ينزل حتى انتهى أمر الخمر من أرض العرب. روى أبو بريدة عن أبيه قال:

بينما نحن قعود على شراب لنا ونحن نشرب الخمر حلة، إذ قمت حتى آتى رسول الله ﷺ وقد نزل تحريم الخمر: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ** ﴾ [المائدة: ٩٠] إلى قوله تعالى: ﴿ **فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ** ﴾ [٩١] فجئت إلى أصحابى فقرأتها عليهم إلى قوله تعالى: ﴿ **فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ** ﴾.. قال: وبعض القوم شربته فى يده، شرب بعضا وبقى بعض فى الإناء فقال بالاناء تحت شفته العليا كما يفعل الحجام ثم صبوا فى باطيتهم فقالوا: انتهينا.. انتهينا.

(هـ) ولقد تأصل فقه الطاعة فى المعروف عند العرب وغيرهم من المسلمين حتى وصل الى عجائز الناس:

أخرج مالك عن ابن أبى مليكة قال: إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مر بامرأة مجذومة وهى تطوف بالبيت فقال لها: «يا أمة الله لا تؤذى الناس، لو جلست فى بيتك.. فجلست، فمر بها رجل بعد ذلك فقال: إن الذى نهاك قد مات فارجعى. قالت: ما كنت لأطيعه حيا وأعصيه ميتا».

(و) وتأصل فقه الطاعة بالمعروف فى أنفسهم ظاهرا وباطنا فى الغيبة والحضور فى المنشط والمكره:

لما عزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد غضب ناس، وممن غضب علقمة بن علاثة وهو من أمراء العرب فانظر ماذا كان جوابه فى هذه الحادثة اللطيفة:

«لقى عمر رضى الله عنه علقمة بن علاثة جوف الليل وكان عمر يشبه بخالد ابن الوليد رضى الله عنه. فقال له علقمة: يا خالد.. عزلك هذا الرجل، لقد أبى بى شحا، لقد جئت إليه وابن عم لى نسأله شيئا فأما إذ فعل فلن أسأله شيئا. فقال له

عمر: هيه فما عندك؟ فقال: هم قوم لهم علينا حق فنؤدى لهم حقهم وأجرنا على الله. فلما أصبحوا قال عمر لخالد: ماذا قال لك علقمة منذ الليلة؟ قال: والله ما قال لى شيئا. قال: وتحلف أيضا. فجعل علقمة يقول لخالد: مه يا خالد.. فقال عمر: كلاهما قد صدق، وأجاز علقمة وقضى له حاجته».

(ز) ولكن طاعتهم طاعة ضمن حدود المعروف أما أن تكون على غير ذلك فلا:

أخرج الشيخان عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: استعمل النبى ﷺ رجلا من الأنصار على سرية بعثهم وأمرهم ان يسمعوا له ويطيعوا. قال: فأغضبوه فى شئ فقال:

اجمعوا لى حطبا، فجمعوا فقال: أوقدوا نارا، فأوقدوا ثم قال: ألم يأمركم رسول الله ﷺ أن تسمعوا لى وتطيعوا؟ قالوا: بلى. قال: فادخلوها. قال: فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: إنما فررنا إلى رسول الله ﷺ من النار. قال: فسكن غضبه وطفئت النار فلما قدموا على النبى ﷺ ذكروا ذلك له فقال: «لو دخلوها ما خرجوا منها، إنما الطاعة فى المعروف».

وكان الصحابة يتذاكرون هذا الأصل ويتواصون به حتى لا ينحرفوا بانحراف سلطان أو حكم:

لما ولى زياد الحكم بن عمر الغفارى خراسان أرسل عمران ابن الحصين رضى الله عنهما يطلبه حتى إذا لقيه قال: أسمعت رسول الله ﷺ يقول: لا طاعة لأحد فى معصية الله تبارك وتعالى؟ قال: نعم. فقال عمران: الحمد لله - أو الله أكبر.

(ح) وأخرج ابن جرير وابن عساكر عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد على سرية ومعه فى السرية عمار بن ياسر رضى الله عنهما قال: فخرجوا حتى اذا أتوا قريبا من القوم الذين يريدون أن يصبحوهم نزلوا فى بعض الليل قال:

وجاء القوم النذير فهربوا حيث بلغوا، فأقام رجل كان قد أسلم هو وأهل بيته

فأمر اهله فتحملوا وقال: قفوا حتى آتيكم، ثم جاء حتى دخل على عمار رضى الله عنه قال:

يا أبا اليقظان.. إنى قد أسلمت وأهل بيتى فهل ذلك نافعى إن أنا أقسمت. فان قومى قد هربوا حيث سمعوا بكم، قال: فقال له عمار: فأقم فأنت آمن.

فانصرف الرجل هو وأهله، قال: فصبح خالد القوم فوجدهم قد ذهبوا فأخذ الرجل وأهله فقال له عمار: إنه لا سبيل لك على الرجل.. قد أسلم.

قال: وما أنت وذاك؟ أتجير على وأنا الأمير؟

قال: نعم، أجير عليك وأنت الأمير. ان الرجل قد آمن ولو شاء لذهب كما ذهب أصحابه، فأمرته بالمقام لإسلامه. فتنازعا فى ذلك حتى تشاتما فلما قدما المدينة اجتمعا عند رسول الله ﷺ فذكر عمار الرجل وما صنع فأجاز رسول الله ﷺ أمان عمار ونهى يومئذ أن يجير أحد على الأمير، فتشاتما عند رسول الله ﷺ فقال خالد:

يا رسول الله.. أيشتمنى هذا العبد عندك، أما والله لولاك ما شتمنى. فقال نبى الله ﷺ:

كف يا خالد عن عمار فإنه من يبغض عمار يبغضه الله عز وجل ومن يلعن عمارا يلعنه الله عز وجل. ثم قام عمار وأتبعه خالد بن الوليد حتى أخذ بثوبه فلم يزل يترضاه حتى رضى عنه، ونزلت هذه الآية:

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ** (١) **فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ** ﴾ [النساء: ٥٩] فيكون الله ورسوله هو الذى يحكم فيه.

﴿ **ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً** ﴾(٢) [النساء: ٥٩].

والمسألة فى هذا الموضوع كما يلى:

أن رسول الله ﷺ علم الانسان أن الله وحده هو الذى يستحق الطاعة وحتى الرسول ﷺ إنما يطاع لله، وغير رسول الله انما يطاع بطاعة الله ﴿ **مَن يُطِعِ الرَّسُولَ**

---

(١) أمراء السرايا.

(٢) خير عاقبة.

فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾[النساء: ٨٠] ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾[النساء: ٥٩] أى من المسلمين، أما غير المسلم فلا طاعة له، والمسلم طاعته فى حدود كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لذلك ختمت الآية: ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾[النساء: ٥٩] وعلى هذا فمن أمر بمعصية الله فلا طاعة له، وبهذا تماسكت شخصية الإنسان تماسكا لا مثيل له، فصار المسلم يقول: لا ، إذا كان ينبغى أن تقال مهما كان وراءها، لا يبالى إن كان الناس كلهم عليه فى الباطل، لا يساير الناس ولا يداريهم على حساب الحق. أما فى الحق فهو أكثر الناس طاعة وانضباطا إذ فى هذه الحالة جعل رسول الله ﷺ بأمر الله طاعة الأمير فرضا، وفى الباطل معصيته فريضة: قال أبو جعفر المنصور الخليفة لطاووس: ناولنى الدواة. فرفض. قال: أخشى أن تكتب فيها معصية فأكون شريكك فيها. فما أبلغ هذا فى ثمار النبوة وما أدله عليها ألا يطيع الانسان غير الله.

سابعا - أجيال خيرة جريئة بالحق:

وثمرة أخرى من ثمار محمد ﷺ تشهد أنه رسول الله:

ما هو الخير وما هو الشر؟ وما هو المعروف وما هو المنكر؟ وإذا عرفنا الخير والشر والمعروف والمنكر، فما هى أجزاء هذا وهذا، وأفراد هذا وهذا؟ وإذا عرفنا الجميع فكيف نقتلع جذور الشر ونقضى عليه، ونمكن للخير وندعمه؟ وكيف نوجد بشرا ليس للشر فى قلوبهم نصيب، وقد نذروا للخير أنفسهم، همهم الأعلى إقامة بنيانه وإرساء حقائقه؟ هذه قضايا يعجز عن كل واحد منها الكثير، ولا يجمع بينها أحد ولكن محمد رسول الله ﷺ بفترة بسيطة من الزمن عرف الانسان بالخير كله والشر كله وربى جيلا يعشق الخير، ويبغض الشر ويتفانى من اجل أن تقوم الحياة البشرية على الخير المشرق المنير. فخرجت نماذج ما عرف العالم بعد الرسل عليهم الصلاة والسلام أقوى منها، ولا أصلب فى هذا الأمر.

اقرأ سيرة الرسول ﷺ واقرأ القرآن والحديث فانك لا تجد خيرا إلا ذكر، ولا شرا إلا ذكر، ولا تجد شيئا قال عنه رسول الله ﷺ انه خير تستطيع أن تحكم عليه غير ذلك

إلا إذا جانبت العقل ولم تخضع لحجة، ولا تجد شيئا قال عنه رسول الله ﷺ انه شر تستطيع أن تحكم عليه غير ذلك، إلا إذا كنت متبعا للشهوات ميالا مع الهوى ﴿ **وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ** ﴾ [المؤمنون: ٧١] ومهما حاولت أن تجد شيئا من الشر لم ينه عنه رسول الله ﷺ فانك لا تجد، ومهما حاولت أن تجد شيئا من الخير لم يأمر به فانك لا تجد، والشئ المهم بعد ذلك ان هذا الخير تمثل بمجتمع بشرى لم يبق فيه للشر ظهور، وكل ذلك ببركات رسول الله ﷺ وتربيته. وسنضرب هنا أمثلة من حياة المسلمين يتبين فيها حربهم العنيفة للمنكر وحرصهم على المعروف وأمرهم به:

ولن نختار هذه الأمثلة من حياة الصحابة فى زمن الرسول ﷺ، فانه هو الذى كان يتولى الأمر، ولا فى زمن الخلفاء الراشدين لشهرة ذلك عن عصرهم. بل سنقدم أمثلة عما حدث بعد يرى منها كيف أن الماء الذى فجره محمد رسول الله ﷺ بقى أبدا صافيا زلالا خيرا يحيى القلوب بالخير ويميت بها الشر:

(أ) أخرج الطبرانى وأبو يعلى عن أبى فنيل عن معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه أنه صعد المنبر يوم الغمامة فقال عند خطبته:

إنما المال مالنا والفئ فيئنا، فمن شئنا أعطيناه ومن شئنا منعناه، فلم يجبه أحد، فلما كان فى الجمعة الثانية قال مثل ذلك فلم يجبه أحد، فلما كان فى الجمعة الثالثة قال مثل مقالته فقام اليه رجل ممن حضر المسجد فقال:

كلا.. إنما المال مالنا والفئ فيئنا فمن حال بيننا وبينه حاكمناه إلى الله بأسيافنا.

فنزل معاوية رضى الله عنه فأرسل الى الرجل فأدخله فقال القوم: هلك الرجل، ثم دخل الناس فوجدوا الرجل معه على السرير فقال معاوية للناس: إن هذا الرجل احيانى.. أحياه الله، سمعت رسول الله ﷺ يقول:

سيكون بعدى أمراء يقولون ولا يرد عليهم، يتقاحمون فى النار كما تتقاحم القردة.

وإنى تكلمت أول جمعة فلم يرد على أحد فخشيت أن أكون منهم ثم تكلمت فى الجمعة الثانية فلم يرد أحد على قلت فى نفسى انى من القوم، ثم تكلمت فى الجمعة الثالثة فقام هذا الرجل فرد على فأحيانى، أحياه الله.

قال الهيثمى: رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط وأبو يعلى ورجاله ثقات.

(ب) أخرج مسلم عن الحسن البصرى أن عائذ بن عمرو رضى الله عنه دخل على عبيد الله بن زياد فقال: أى بنى.. إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إن شر الرعاء الحطمة. فإياك أن تكون منهم، قال له: اجلس فإنما أنت من نخالة أصحاب محمد ﷺ. قال: وهل كانت لهم نخالة؟ إنما كانت النخالة بعدهم وفى غيرهم».

(جـ) روى الخمسة إلا البخارى عن طارق بن شهاب: «أن أول من بدأ بخطبة العيد قبل الصلاة مروان فقام إليه رجل فقال: الصلاة قبل الخطبة» وفى رواية الترمذى: «يا مروان.. خالفت السنة» زاد أبو داوود: «أخرجت المنبر فى يوم عيد ولم يكن يخرج فيه وبدأت بالخطبة قبل الصلاة» قال: قد ترك ما هنالك. قال أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه: أما هذا فقد قضى ما عليه، سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه، فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» وليس عند النسائى الا الأخير أى المسند.

(د) وفى «الإحياء» عن الشافعى قال: حدثنى محمد بن على قال: انى لحاضر مجلس أمير المؤمنين أبى جعفر المنصور وفيه ابن ابى ذؤيب وكان والى المدينة الحسن بن زيد قال: أتى الغفاريون فشكوا إلى أبى جعفر شيئا من أمر الحسن بن زيد قال الحسن: يا أمير المؤمنين.. سل عنهم ابن أبى ذؤيب. قال: فسأله فقال: ما تقول فيهم يا ابن أبى ذؤيب؟ قال: أشهد أنهم أهل تحطم فى أعراض الناس كثيروا الأذى لهم. قال أبو جعفر: قد سمعتم. فقال الغفاريوون: يا أمير المؤمنين ... سله عن الحسن ابن زيد قال: أشهد عليه أنه يحكم بغير الحق، ويتبع هواه. فقالوا: قد سمعت ما قال فيه ابن أبى ذؤيب وهو الشيخ الصالح؟ قال: يا أمير المؤمنين.. اسأله عن نفسك. فقال: ما تقول فى؟ قال: أعفنى. فقال: أسألك بالله الا أخبرتنى. قال: تسألنى بالله.. كأنك لا تعرف نفسك؟ قال: والله لتخبرنى. قال:

أشهد أنك أخذت هذا المال من غير حقه فجعلته فى غير أهله، وأشهد أن الظلم ببابك فاش.

قال: فجاء أبو جعفر من موضعه حتى وضع يده فى قفا ابن أبى ذؤيب فقبض عليه ثم قال له: أما والله لولا أنى جالس هاهنا لأخذت فارس والروم والديلم والترك بهذا المكان منك، قال: فقال ابن أبى ذؤيب: يا أمير المؤمنين قد ولى أبو بكر وعمر فأخذا الحق وقسما بالسوية، وأخذا بأقفاء فارس والروم وأصغرا آنافهم، قال: فخلى أبو جعفر قفاه وخلى سبيله وقال: والله لو لا أعلم أنك صادق لقتلتك.. فقال ابن أبى ذؤيب: والله يا أمير المؤمنين إنى لأنصح لك من ابنك المهدى.

(هـ) وصاح الشيخ عز الدين بن عبد السلام بالملك أيوب: يا أيوب.. ما حجتك عند الله إن قال لك: ألم أبوئ لك ملك مصر ثم تبيح الخمور. قال: وهل جرى ذلك؟ قال: نعم، الحانة الفلانية يباع فيها الخمور وأنت تتقلب فى نعمة هذه المملكة، قال: هذا أنا ما عملته، هذا من زمان أبى. قال: أنت ممن يقولون: ﴿**إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ**﴾ [الزخرف: ٢٢] فأمر الملك برفعها.

وسأل الشيخ تلميذه الباجى قال: يا سيدى.. أما خفته؟ قال الشيخ: يا بنى.. استحضرت هيبة الله فصار قدامى مثل القط.

(و) وللنووى مواقف فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ننقل بعضها:

لما ورد دمشق من مصر السلطان المجاهد العظيم الملك الظاهر بيبرس بعد قتال التتار وإجلائهم عن البلاد زعم له وكيل بيت المال أن كثيرا من بساتين الشام من أملاك الدولة فأمر الملك بالحوطة عليها - أى بحجزها - وتكليف واضعى اليد على شئ منها إثبات ملكيته وإبراز وثائقه فلجأوا إلى الشيخ النووى فى دار الحديث فكتب الى الملك هذا الكتاب:

«بسم الله الرحمن الرحيم:

الحمد لله رب العالمين. قال الله تعالى: ﴿**وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الذاريات: ٥٥] وقال تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ**﴾ [آل عمران: ١٨٧] وقال تعالى: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾ [المائدة: ٢].

وقد أوجب الله على المكلفين نصيحة السلطان أعز الله أنصاره، ونصيحة عامة المسلمين، ففى الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الدين النصيحة.. لله، وكتابه، وأئمة المسلمين وعامتهم».

ومن نصيحة السلطان – وفقه الله لطاعته وأولاه بكرامته – أن تنهى إليه الأحكام إذا جرت على خلاف قواعد الإسلام. فقد أوجب الله تعالى الشفقة على الرعية، والاهتمام بالضعفة وإزالة الضرر عنهم.

قال تعالى:

﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر:٨٨].

وفى الحديث الصحيح: قال رسول الله ﷺ: «إنما تنصرون وترزقون بضعفائكم».

وقال ﷺ: «من كشف عن مسلم كربة من كرب الدنيا كشف الله عنه كربة من كرب يوم القيامة. والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه».

وقال ﷺ: «اللهم من ولى من أمر أمتى شيئا فرفق بهم فارفق به، ومن شق عليهم فاشقق عليه».

وقال ﷺ «كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته».

وقال ﷺ: «إن المقسطين على منابر من نور عن يمين الرحمن، الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا».

وقد أنعم الله علينا وعلى سائر المسلمين بالسلطان، أعز الله أنصاره. فقد أقامه لنصرة الدين، والذب على المسلمين، وأذل به الأعداء من جميع الطوائف وفتح عليه الفتوحات المشهورة، فى المدة اليسيرة، وأوقع الرعب منه فى قلوب أعداء الدين وسائر الماردين. ومهد له البلاد والعباد، وقمع بسببه أهل الزيغ والفساد، وأمده بالاعانة واللطف والسعادة، فلله الحمد على هذه النعم الظاهرة، والخيرات المتكاثرة، ونسأل الله الكريم دوامها له وللمسلمين وزيادتها فى خير وعافية.. آمين.

وقد أوجب الله شكر نعمه ووعد الزيادة للشاكرين.

فقال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

وقد لحق المسلمون بسبب هذه الحوطة على أملاكهم، أنواع من الضرر، ولا يمكن التعبير عنها، وطلب منهم إثبات لا يلزمهم، فهذه الحوطة لا تحل عند أحد من علماء المسلمين. بل من فى يده شئ فهو ملكه، لا يحل الاعتراض عليه، ولا يكلف بإثباته . وقد اشتهر من سيرة السلطان أنه يحب العمل بالشرع ويوصى نوابه به، فهو أولى من عمل به.

والمسئول إطلاق الناس من هذه الحوطة، والإفراج عن جميعم ، فأطلق أطلقك الله من كل مكروه، فهم ضعفة، ومنهم الأيتام الأرامل والمساكين الضعفة، والصالحون وبهم تنصر وتعان وترزق، وهم سكان الشام المبارك، جيران الانبياء صلاة الله وسلامة عليهم، وسكان ديارهم، فلهم حرمات من جهات، ولو رأى السلطان ما يلحق الناس من الشدائد لاشتد حزنه عليهم، وأطلقهم فى الحال، ولم يؤخرهم، ولكن لا تنهى إليه الأمور على وجهها، فالله أغث المسلمين يغثك الله، وارفق بهم يرفق الله بك، وعجل لهم الإفراج قبل وقوع الأمطار، وتلف غلاتهم فإن أكثرهم ورثوا هذه الأملاك من أسلافهم، ولا يمكنهم تحصيل كتب شراء – أى إسناد تمليك – وقد نهبت كتبهم، وإذا رفق السلطان بهم حصل له دعاء رسول الله ﷺ لمن رفق بأمته، ويظهره على أعدائه.

فقد قال الله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧].

وتتوفر له من رعيته الدعوات، وتظهر فى مملكته البركات، ويبارك له فى جميع ما يقصده من الخيرات. وفى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة».

فنسأل الله الكريم أن يوفق السلطان للسنن الحسنة التى يذكر بها الى يوم القيامة، ويحميه من السنن السيئة، فهذه نصيحتنا الواجبة علينا للسلطان ونرجو من فضل الله تعالى أن يلهمه الله فيها القبول.. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. والحمد لله رب العالمين وصلواته وسلامه على سيدنا محمد وآله وصحبه».

فغضب السلطان من هذه الجرأة عليه وخشى إذا لان له أن يعيد معه فى الشام سيرة العز بن عبد السلام فى مصر، فأجابه بالرد الشديد، وأراد أن يعجل عليه بالعقوبة، فأمر بقطع رواتبه وعزله من مناصبه.

فقالوا له: إنه ليس للشيخ راتب، وليس له منصب.

ولما رأى الشيخ أن الكتاب لم يفد، وأن هذا اللين منه لم يأت بنفع، ذهب إليه بنفسه، وقابله وكلمه كلاما غليظا. وأراد السلطان البطش به، فصرف الله قلبه عن ذلك وحمى الشيخ منه، وأبطل الأمر بـ «الحوطة» وخلص الناس من شرها.

ثم جاءت قضية أخرى:

أراد السلطان أن يجهز جيشا، ففرض على الناس ضريبة جديدة، فعاذوا منه بالشيخ واجتمع إليه علماء دمشق ووكلوه أن يكتب ما يريد وهم يمضون معه الكتاب، وكانت الوحشة لا تزال قائمة بينه وبين الملك، لما كان منه فى «قضية الحوطة». فلم يكتب إليه رأسا بل كتب إلى الأمير بدر الدين الخازن ليوصل كتابه إليه وكان بدر الدين نائب المملكة وأتابك الجيوش - أى القائد العام - وكان موصوفا بكثرة المودة ومحبة العلماء والصلحاء وحسن السيرة.

قال تلميذه السخاوى:

فمما كتبه وأرسل به ورقة الى الظاهر تتضمن وجوب العدل فى الرعية، وإزالة المكوس عنهم، ووضع العلماء والشيوخ خطوطهم معه.

فقرأ الأمير الكتاب ورفع الورقة إلى السلطان، فاشتد غضبه، واحتج بأنه يريد هذا المال للجهاد وهم يعارضونه وكان عليهم أن يؤيدوه وأنهم ينكرون عليه، ولم يكونوا ينكرون على الكفار لما كانوا يحكمون البلاد، قبل أن يخرجهم منها بجهاده الطويل، ومثابرته عليه. وتوعد العلماء، فتقاعسوا، ولكن النووى لم يبال، وكتب إليه فى الجواب هذا الكتاب:

«بسم الله الرحمن الرحيم»

الحمد لله رب العالمين.. اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، من عبد الله يحيى النووى ينهى: أن خدام الشرع، كانوا يكتبوا ما بلغ السلطان أعز الله أنصاره فجاء الجواب بالإنكار والتوبيخ والتهديد، وفهمنا من أن الجهاد ذكر فى الجواب على خلاف حكم الشرع، وقد أوجب الله إيضاح الأحكام عند الحاجة إليها، فقال تعالى:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ ﴾

[آل عمران: ١٨٧]

﴿ وَلَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلاَ عَلَى المَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى المُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

[التوبة: ٩١].

وذكر فى الجواب أن الجهاد ليس مختصا بالأجناد، وهذا أمر لم ندعه ولكن الجهاد فرض كفاية، فإذا قرر السلطان له أجنادا مخصوصين، ولهم أخباز معلومة من بيت المال كما هوالواقع، تفرغ باقى الرعية لمصالحهم ومصالح السلطان والأجناد وغيرهم، من الزراعة والصنائع وغيرها مما يحتاج الناس كلهم إليه، فجهاد الأجناد مقابل بالأخباز المقررة لهم، ولا يحل أن يؤخذ من الرعية شئ ما دام فى بيت المال شئ، من نقد أو متاع أو أرض أو ضياع تباع أو غير ذلك.

وهؤلاء علماء المسلمين فى بلاد السلطان أعز الله أنصاره متفقون على هذا. وبيت المال بحمد الله معمور، زاده الله عمارة وسعة وخيرا وبركة، فى حياة السلطان المقرونة بكمال السعادة له والتوفيق والتسديد والظهور على أعداء الدين ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٢٦] وإنما يستعان فى الجهاد وغيره بالافتقار إلى الله تعالى، واتباع آثار النبى ﷺ وملازمة أحكام الشرع وجميع ما كتبناه، أولا وثانيا هو النصيحة التى نعتقدها وندين لله بها، ونسأله الدوام عليها حتى نلقاه، والسلطان يعلم أنها نصيحة له وللرعية، وليس فيها ما يلام عليه، ولم نكتب هذا للسلطان إلا لعلمنا أنه يحب الشرع ومتابعة أخلاق رسول الله ﷺ فى الرفق بالرعية، والشفقة عليهم وإكرامه لآثار النبى ﷺ، وكل ناصح للسلطان موافق على هذا الذى كتبناه،

وأما ما ذكر فى الجواب من كوننا لم ننكر على الكفار حين كانوا فى البلاد، فكيف تقاس ملوك الإسلام وأهل الإيمان والقرآن، بطغاة الكفار، وبأى شئ كنا نذكر طغاة الكفار وهم لا يعتقدون شيئا من ديننا؟ وأما تهديد الرعية بسبب نصيحتنا، وتهديد طائفة العلماء، فليس هو المرجو من عدل السلطان وحلمه، وأى حيلة لضعفاء المسلمين الناصحين نصيحة للسلطان ولهم، ولا علم لهم به، وكيف يؤاخذون به لو كان فيه ما يلام؟ وأما أنا فى نفسى فلا يضرنى التهديد، ولا أكثر منه، ولا يمنعنى ذلك من نصيحة السلطان فإنى أعتقد أن هذا واجب على وعلى غيرى، وما ترتب على الواجب فهو خير وزيادة عند الله ﴿ **إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ** ﴾ [غافر: ٣٩] ﴿ **وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ** ﴾ [غافر: ٤٤] وقد أمرنا رسول الله ﷺ أن نقول الحق حيثما كنا، وأن لا نخاف فى الله لومة لائم، نحن نحب للسلطان معالى الأمور وأكمل الأحوال وما ينفعه فى آخرته ودنياه ويكون سببا فى دوام الخيرات له ويبقى ذكره له على مر الأيام يخلد فى سنته الحسنة ويجد نفعه ﴿ **يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً** ﴾ [آل عمران: ٣٠]. وأما ما ذكر فى تمهيد سلطان البلاد وإدامته الجهاد وفتح الحصون وقهر الأعداء، فهو بحمد الله من الأمور الشائعة التى اشترك فى العلم بها الخاصة والعامة، وسارت فى أقطار الأرض ولله الحمد.

وثواب ذلك مدخر للسلطان الى يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا، ولا حجة لنا عند الله إذا تركنا النصيحة الواجبة علينا.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

وبعد.. إذا لم يكن تمييز الخير والشر والمعروف من المنكر وتبيان كل، وتربية الناس على محبة الخير والمعروف، وبغض الشر والمنكر، إذا لم يكن هذا من ثمار النبوة فما هى ثمار النبوة؟

لقد بين محمد رسول الله ﷺ للناس الخير والشر.

ودل الناس على أن يفعلوا الخير وحده، وعلى أن يحاربوا الشر أنى كان. فكانوا مثلا عليا لا مثيل لها فى ذلك، استحقوا معها أن يكونوا خير أمة أخرجت للناس

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

نعم أنها ثمار النبوة، ولا يمكن أن يكون غير ذلك، فلم تكن الجزيرة العربية مرشحة لشئ من هذا ولا غيرها لو لا وحى الله.

* * *

ثامنا - دولة هداية لا جباية:

وثمرة ثامنة:

أخرج ابن سعد عن سفيان بى أبى العوجاء قال: قال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - : والله ما أدرى خليفة أنا أم ملك؟ فان كنت ملكا فهذا أمر عظيم. قال قائل: يا أمير المؤمنين.. إن بينهما فرقا، فان الخليفة لا يأخذ إلا حقا ولا يضعه إلا فى حق، وأنت بحمد الله كذلك، والملك يعسف الناس فيأخذ من هذا ويعطى هذا.. فسكت عمر.

وقال عمر لسلمان: أملك أنا أم خليفة؟ فقال له سلمان: إن أنت جبيت من أرض المسلمين - اى أرض الدولة الإسلامية وان كانت لذمى غير مسلم - درهما أو أقل أو أكثر ثم وضعته فى غير حق، فأنت ملك غير خليفة.

هذه هى الثمرة المقصودة، أن رسول الله ﷺ قد شرع بأمر من الله للناس فى شأن المال شريعة لا يمكن أن يوجد أعدل منها، فلا يؤخذ من أحد المال إلا بعدل، ولا يتملك إنسان ملكا إلا بحق وعدل، وقبل ذلك لم تكن فى الأرض نظرية للتملك صالحة ولا عادلة، ولا نظرية للجباية صالحة أو عادلة، وكان شعار الحكومات قبل الاسلام: الجباية، فأصبح شعار حكومة الإسلام: الهداية.

يقول الدكتور «الفردج. ميكر» عن الحكم الرومانى فى مصر:

«إن حكومة مصر - الرومية - لم يكن لها إلا غرض واحد وهو أن تبتز الأموال من الرعية لتكون غنيمة للحاكمين، ولم يساورها أن تجعل قصد الحكم توفير الرفاهية للرعية أو ترقية حال الناس والعلو بهم فى الحياة، أو تهذيب نفوسهم، أو إصلاح أمور

أرزاقهم، فكان الحكم على ذلك حكم الغرباء لا يعتمد الا على القوة ولا يحس بشئ من العواطف على الشعب المحكوم».

ويقول مؤلف «إيران فى عهد الساسانين» عن الوضع فى ايران:

«كان الجباة لا يتحرزون من الخيانة، واغتصاب الأموال فى تقدير الضرائب وجباية الأموال.

«إن ما قام به كسرى أنوشروان من إصلاح النظام المالى كان فى مصلحة مالية المملكة أكثر منه فى مصلحة الرعية. فلم تزل العامة يعيشون فى الجهل والضنك كما كانوا فى السابق.

«كان الفلاحون فى شقاء وبؤس عظيم، وكانوا مرتبطين بأراضيهم، وكانوا يستخدمون مجانا، ويكلفون كل عمل. يقول المؤرخ «اميان مارسيينوس»: إن هؤلاء الفلاحين البؤساء كانوا يسيرون خلف الجيوش مشاة كأنه قد كتب عليهم الرق الدائم، ولم يكونوا ينالون إعانة أو تشجيعا من راتب أو أجرة، وكانت علاقة الفلاحين بالملاك أصحاب الأراضى كعلاقة العبيد بالسادة».

أين هذا مما حدث ببركات رسول الله ﷺ مما نرى نماذجه هنا:

(أ) أوصى عمر بن الخطاب وصية لمن يلى أمر المسلمين بعده منها:

«وأوصيه بأهل الأمصار خيرا فانهم ردء الإسلام، وجباة الأموال، وغيظ العدو، وأن لا يؤخذ منهم الا فضلهم عن رضاهم». «وأوصيه بذمة الله وبذمة رسوله، أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفهم الا طاقتهم».

(ب) وأخرج ابن زنجويه عن رجل من ثقيف قال: استعملنى على بن أبى طالب رضى الله عنه على عكبرا فقال لى وأهل الأرض عندى: «إن أهل السواد قوم خدع، فلا يخدعنك فاستوف ما عليهم» ثم قال لى: رح إلى. فلما رجعت اليه قال لى:

إنما قلت لك الذى قلت لأسمعهم، لا تضربن رجلا منهم بسوط فى طلب درهم، ولا تقمه قائما، ولا تأخذن منهم شاة، ولا بقرة إنما أمرنا أن نأخذ منهم العفو.. أتدرى ما العفو؟ الطاقة.

وفى رواية البيهقى: «ولا تبيعن لهم رزقا ولا كسوة شتاء ولا صيفا ولا دابة يعتملون عليها ولا تقم رجلا قائما فى طلب درهم».

قال: قلت: يا أمير المؤمنين.. إذن أرجع إليك كما ذهبت من عندك.

قال: وإن رجعت كما ذهبت.. ويحك، إنما أمرنا أن نأخذ منهم العفو - يعنى الفضل -.

(جـ) وأخرج أبو عبيد عن يزيد بن أبى مالك قال: كان المسلمون بالجابية وفيهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأتاه رجل من أهل الذمة يخبره أن الناس قد أسرعوا فى عنبه فخرج عمر رضى الله عنه حتى لقى رجلا من أصحابه أحمل ترسا عليه عنب فقال عمر: وأنت أيضا؟ فقال: يا أمير المؤمنين.. أصابتنا مجاعة. فانصرف عمر رضى الله عنه وأمر لصاحب الكرم بقيمة عنبه.

(د) وأخرج الحاكم عن إبراهيم بن عطاء عن أبيه أن زيادا - أو ابن زياد - بعث عمران بن حصين رضى الله عنه ساعيا فجاء ولم يرجع معه درهما، فقال له: أين المال؟ قال: وللمال أرسلتنى؟ أخذناها كما كنا نأخذها على عهد رسول الله ﷺ ووضعناها فى الموضع الذى كنا نضعها على عهد رسول الله ﷺ.

(هـ) وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عروة بن محمد:

«أما بعد.. فانك كتبت إلى تذكر أنك قدمت اليمن فوجدت. على أهلها ضريبة من الخراج مضروبة ثابتة فى أعناقهم كالجزية يؤدونها على كل حال ان أخصبوا أو أجدبوا، أو حيوا أو ماتوا، فسبحان الله رب العالمين، ثم سبحان الله رب العالمين ثم سبحان الله رب العالمين إذا أتاك كتابى هذا فدع ما تنكره من الباطل إلى ما تعرفه من الحق ثم ائتنف - أى خذ - الحق فاعمل به بالغا بى وبك ما بلغ وإن أحاط بمهج أنفسنا وإن لم ترفع الى من جميع اليمن إلا جفنة من كتم فقد علم الله أنى بها مسرور، إذا كانت موافقة للحق.. والسلام».

(و) وأخرج ابن عساكر والواقدى عن عبد الله بن أبى حدرد الأسلمى رضى الله عنهما قال: لما قدمنا مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه الجابية إذا هو بشيخ من أهل الذمة يستطعم، فسأل عنه فقيل: هذا رجل من أهل الذمة كبر وضعف، فوضع

عنه عمر رضى الله عنه الجزية التى فى رقبته وقال: كلفتموه الجزية حتى إذا ضعف تركتموه يستطعم؟ فأجرى عليه من بيت المال عشرة دراهم وكان له عيال.

وفى رواية أبى عبيد وابن زنجويه والعقيلى عن عمر رضى الله عنه أنه مر بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب المساجد فقال: ما أنصفناك إذا كنا أخذنا منك الجزية فى شبيبتك ثم ضيعناك فى كبرك. ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه.

(ز) وأخرج عبد الرازق عن سعيد بن المسيب قال: «أراد عمر رضى الله عنه أن يأخذ دار العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه فيزيدها فى المسجد، فأبى العباس أن يعطيها إياه، فقال عمر: لآخذنها. قال: فاجعل بينى وبينك أبى بن كعب رضى الله عنه. قال: نعم، فأتيا أبيا فذكرا له فقال أبى: أوحى الله الى سليمان بن داوود عليهما الصلاة والسلام أن يبنى بيت المقدس وكانت أرضا لرجل فاشترى منه الأرض فلما أعطاه الثمن قال: الذى أعطيتنى خير أم الذى أخذت منى؟ قال: بل الذى أخذت منك. قال: فإنى لا أجيز ثم اشتراها منه بشئ أكثر من ذلك فصنع الرجل مثل ذلك مرتين أو ثلاثا فاشترط عليه سليمان عليه الصلاة والسلام أنى أبتاعها منك على حكمك فلا تسألنى أيهما خير؟ قال: فاشتراها منه بحكمه فاحتكم اثنى عشر ألف قنطار ذهبا فتعاظم ذلك سليمان أن يعطيه فأوحى الله إليه: «إن كنت تعطيه من شئ هو لك فأنت أعلم وان كنت تعطيه من رزقنا فاعطه حتى يرضى». ففعل. قال: وأنا أرى أن عباسا أحق بداره حتى يرضى. قال العباس: فاذ قضيت لى فإنى أجعلها صدقة للمسلمين».

وفى رواية: فقال أُبى لعمر: ما أرى أن تخرجه من داره حتى ترضيه. فقال له عمر: أرأيت قضاءك هذا فى كتاب الله وجدته أم سنة رسول الله ﷺ؟ فقال أبى: بل سنة رسول الله ﷺ. فقال عمر: وما ذاك؟ فقال: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: ان سليمان بن داوود ﷺ لما بنى المقدس جعل كلما بنى حائطا أصبح منهدما فأوحى الله إليه: أن لا تبنى فى حق رجل حتى ترضيه. فتركه عمر فوسعها العباس رضى الله عنهما – بعد ذلك فى المسجد.

وأخرج ابن جرير الطبرى عن زياد بن جزء الزبيدى فقال: افتتحنا الاسكندرية

فى خلافة عمر رضى الله عنه فذكر الحديث وفيه: ثم وقفنا ببلهيب وأقمنا ننتظر كتاب عمر حتى جاءنا فقرأه علينا عمرو رضى الله عنه وفيه:

«أما بعد.. فإنه جاءنى كتابك تذكر أن صاحب الاسكندرية عرض أن يعطيك الجزية على أن ترد عليه ما أصيب من سبايا أرضه ولعمرى لجزية قائمة تكون لنا ولمن بعدنا من المسلمين أحب إلى من فىء يقسم ثم كأن لم يكن، فاعرض على صاحب الاسكندرية أن يعطيك الجزية على أن تخيروا من فى أيديكم من سبيهم بين الإسلام وبين دين قومهم، فمن اختار منهم الإسلام فهو من المسلمين له مالهم وعليه ما عليهم، ومن اختار دين قومه ضع عليه من الجزية ما يوضع على أهل دينه، فأما من تفرق من سبيهم بأرض العرب فبلغ مكة والمدينة واليمن فإنا لا نقدر على ردهم، ولا نحب أن نصالحه على أمر لا نفى له به».

قال: فبعث عمرو الى صاحب الإسكندرية يعلمه الذى كتب به أمير المؤمنين قال فقال: قد فعلت. قال: فجمعنا ما فى أيدينا من السبايا واجتمعت النصارى فجعلنا نأتى بالرجل ممن فى أيدينا ثم نخيره بين الاسلام والنصرانية، فإذا اختار الإسلام كبرنا تكبيرة هى اشد من تكبيرنا حين نفتح القرية. قال: ثم نحوزه إلينا واذا اختار النصرانية نخرت النصارى ثم حازوه اليهم ووضعنا عليه الجزية وجزعنا من ذلك جزعا شديدا، حتى كأنه رجل خرج منا اليهم قال: فكان ذلك الدأب حتى فرغنا منهم وقد أتى فيمن أتينا به بأبى مريم عبد الله ابن عبد الرحمن قال القاسم: وقد أدركته وهو عريف بنى زبيد قال: فوقفناه فعرضنا عليه الإسلام والنصرانية وأبوه وأمه واخوته فى النصارى فاختار الإسلام فحزناه إلينا ووثب عليه أبوه وأمه واخوته يجاذبوننا حتى شققوا عليه ثيابه ثم هو اليوم عريفا كما ترى.. فذكر الحديث.

إن نقل الدولة من دولة جباية ظالمة، إلى دولة هداية كاملة، مع مرافقة نظرية فى التملك والحقوق فى الملك لا مثيل لها فى تاريخ العالم، ثمرة من ثمار محمد رسول الله ﷺ وإذا لم يكن رسم طريق التملك العادل الذى ليس فيه ظلم ولا حيف ولا حرام، والحقوق التى فى هذا الملك للفقراء والمساكين والغارمين.. بحيث تقوم قضايا المال على العدل الذى لا باطل معه. إذا لم يكن هذا من ثمار النبوة، فما هى ثمار النبوة؟ ان محمدا رسول الله لاشك فى هذا ولا ريب.

تاسعا وعاشرا - جهاد وحرية:

وثمرة تاسعة:

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة:٢٥٦].

اذن هى الحرية الدينية لغير المسلمين فى ظل دولة الإسلام.

فقد أعطى الإسلام الحرية للناس فى عقائدهم إذا خضعوا لحكم الإسلام ما لم يكن وثنيا من جزيرة العرب، فهذا لا حرية له، وما عدا هذا فما عرف الناس مكانا يأمنون فيه على دينهم غير أرض الإسلام. والدليل على ذلك واضح، هو أنه حيث فتح المسلمون أرضا فيها دين وجدت بقايا أهل هذا الدين موجودين، ولو أن المسلمين كانوا يكرهون رعاياهم على اعتناق دينهم كما فعل غيرهم لما وجدت هذه الظاهرة. إنك لا تجد مثلا مسلما واحدا فى أسبانيا مع أن المسلمين فيها كانوا ثلاثين مليونا، بينما تجد نصارى فى بلاد الشام حتى الآن من بقايا النصارى الأولين، وتجد يهودا ، ولا يزال غير المسلمين هم الأكثرية فى الهند مع أن المسلمين حكموا ثمان مائة سنة، وهكذا تتكرر الظاهرة فى كل مكان.

لقد حاول مرة السلطان سليم الأول أن يأخذ أولاد النصارى ويربيهم على الإسلام، فوقف أمامه علماء المسلمين معارضين، وأعلنوا أن هذا لا يجوز فعدل عن فكرته.

ومن قرأ معاهدات المسلمين مع غيرهم من أبناء الأرض المفتوحة وجد سعة صدر المسلمين وتسامحهم، وعلم أن دعوة الإسلام لم تسلك طريقها إلى القلوب الا عن طريق الاقناع والمعاملة الحسنة، والايمان بالقيم العظيمة الموجودة فى هذا الدين، واقرأ نص المعاهدة التى كتبت بين نصارى الشام وبين عمر تجد هذا المعنى واضحا، وهذا نص المعاهدة:

«بسم الله الرحمن الرحيم.. هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل ايلياء من الأمان، أمان لأنفسهم وكنائسهم وصلبانهم سقيمها وبرها، وسائر ملتها أنها لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينقص منها ولا من صلبانهم ولا شئ من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن إيلياء أحد من اليهود. وعلى

أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم اللصوص فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغ مأمنهم ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على إيلياء من الجزية، ومن أحب من ايلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعتهم وصليبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعتهم، وعلى صليبهم حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان فيها من أهل الأرض فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء رجع إلى أرضه. وأنه لا يؤخذ منهم شئ حتى يحصد حصادهم، وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله ﷺ وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين اذا أعطوا الذى عليهم من الجزية» شهد على ذلك من الصحابة رضى الله عنهم: خالد بن الوليد رضى الله عنه وعمرو بن العاص رضى الله عنه وعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه ومعاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه .. ومن قرأ شهادة السكان غير المسلمين رأى مصداق ذلك.

يقول البطريرك «عيشويابه» عام ٦٥٦ هجرية:

«إن العرب الذين مكنهم الزمن من السيطرة على العالم يعاملوننا بعدالة كما تعرفون».

ويقول «مكاريوس» بطريك أنطاكية: «أدام الله بناء دولة الترك خالدة إلى الأبد. فهم يأخذون ما فرضوه من جزية ولا شأن لهم بالأديان سواء أكان رعاياهم مسيحيين، أم ناصريين، يهودا أو سامرة».

ويقول أرنولد: حتى إيطاليا كان فيها قوم يتطلعون بشوق عظيم إلى التركى لعلهم يحظون كما حظى رعاياهم من قبل بالحرية والتسامح اللذين يئسوا من التمتع بهما فى ظل أى حكومة مسيحية.

ويقول: وحدث أن هرب اليهود الأسبانيون المضطهدون فى جموع هائلة فلم يلجأوا إلا إلى تركيا فى نهاية القرن الخامس عشر.

ويقول ريتشارد ستيبر من أبناء القرن السادس عشر: وعلى الرغم من أن الأتراك بوجه عام شعب من أشرس الشعوب.. سمحوا للمسيحيين جميعا للاغريق منهم واللاتين أن يعيشوا محافظين على دينهم، وأن يصرفوا ضمائرهم كيف شاءوا بأن

منحوهم كنائسهم لأداء شعائرهم المقدسة فى القسطنطينية وفى أماكن أخرى كثيرة جدا، على حين أستطيع أن أؤكد بحق بدليل اثنتى عشرة عاما قضيتها فى أسبانيا اننا لا نرغم على مشاهدة حفلاتهم البابوية فحسب بل إنا فى خطر على حياتنا وسلفنا.

وحتى الجزية التى هى من جانب رمز للخضوع لسلطان الاسلام، هى من جانب آخر رمز على الحرية الدينية، فالجزية من هذا الجانب تفرض على رعايا الدولة الإسلامية من غير المسلمين، فى مقابل حمايتهم وعدم مشاركتهم فى الحروب، وفى ذلك منتهى العدل. إذ القتال فى الإسلام قتال عقيدى. فالمسلم الذى يقاتل انما يقاتل بوحى من إسلامه وعقيدته، وفى سبيل ربه ودينه. فلو أننا طالبنا رعايانا من غير المسلمين أن يقاتلوا معنا فكأننا فى هذه الحالة نجبرهم على القتال من أجل عقيدة لا يؤمنون بها، وذلك منتهى الظلم، وخاصة إذا كان القتال ضد أبناء دينهم أنفسهم. فالجزية إذن من هذا الجانب لصالح هؤلاء الرعايا، وجزء متمم لحريتهم، بدليل أنه حدث فى التاريخ الاسلامى أن ناسا من غير المسلمين شاركوا فى جيوش المسلمين فأسقط عنهم المسلمون الجزية.

وحتى العقوبة الصارمة التى فرضها الإسلام على المرتدين عن الإسلام وهى القتل، هذه العقوبة لصالح الأقليات غير الإسلامية فى الأرض الاسلامية من جانب. إذ غير المسلم عندما يعلم ان الدخول فى الاسلام باختياره، ولكنه اذا دخل وخرج فجزاؤه القتل، فذلك يجعله يفكر كثيرا قبل اعتناقه الاسلام فيقدم عليه بعد دراسة طويلة واقتناع كامل.

قارن هذه الحرية المعطاة لغير المسلمين فى الأرض الإسلامية، فى عقائدهم وديانتهم، بما يفعل الآخرون حديثا وقديما من إجبار الإنسان على تغيير عقيدته، أو قتله أو سجنه، أو تعذيبه أو اضطهاده، أو فرض فكر معين عليه يعتنقه ويتبناه، أو عدم السماح له بدراسة دينه وعقيدته، أو يحال بينه وبين من يمكن أن يلقنه دينه، وتجد فى ذلك مآسى وحوادث تثير شجن الإنسان. لكن لو درست التاريخ الإسلامى، فانك لا تجد حادثة واحدة شبيهة بهذا وهذه أمثلة على أعمال غير المسلمين:

يذكر صاحب كتاب «كشف الآثار فى قصص أنبياء بنى إسرائيل» وهو كتاب صاحبه نصرانى:

١- أمر قسطنطين الأعظم بقطع آذان اليهود وإجلائهم إلى أقاليم مختلفة، ثم أمر امبراطور الروم فى القرن الخامس أن يخرج اليهود من الاسكندرية التى كانت مأمنهم.. وأمر بهدم كنائسهم، ومنع عبادتهم وعدم قبول شهادتهم، وعدم نفاذ الوصية ان أوصى أحد منهم لأحد فى ماله، ولما احتجوا على ذلك نهب جميع أموالهم وقتل كثيرا « ص٢٧ ».

٢- ان يهود بلدة أنطيوح لما أسروا بعدما صاروا مغلوبين ، قطع أعضاء البعض وقتل البعض، وأجلى الباقين كلهم، وظلم الامبراطور الرومانى اليهود الموجودين فى المملكة كلها، وأجلاهم وهيج الدول الأخرى على هذه المعاملة فتحملوا بذلك الظلم من آسيا إلى أقصى حد فى أوروبا، ثم بعد مدة كلفوا فى أسبانيا أن يقبلوا شرطا من شروط ثلاثة: أن يقبلوا المسيحية، فان أبوا عن قبولها يكونون محبوسين، وإن أبوا عن كليهما يجلون من أوطانهم ومثل ذلك حدث فى فرنسا (٢٨).

٣- ومن القوانين التى أصدرها الكاثوليكيون: ولا يجوز الأكل مع اليهودى ويجب نزع أولادهم منهم لتربيتهم تربية مسيحية (ص٢٩)

٤- وقد ثبت تاريخيا أن اليهود أجلوا من فرنسا سبع مرات (ص٣٠، ٣١).

٥- وحدث لهم فى النمسا وأسبانيا وبريطانيا من القتل والطرد والاكراه الكثير، وقد أجلى إدوارد الأول ملك بريطانيا أكثر من خمسة عشر ألفا من اليهود بعد أن نهب أموالهم (ص٣٢).

ويذكر توماس نيوتن فى كتابه عن نبوءات الكتب المقدسة: أن النصارى عندما فتحوا بيت المقدس فى الحروب الصليبية قتلوا أكثر من سبعين ألفا من المسلمين.

ونقول: ان المسلمين عندما استردوا المدينة بعد زمن طويل لم يقتلوا إنسانا واحدا بعد الفتح.

وأصدر الملك لويس الحادى عشر سنة ١٧٢٤ قانونا يقول فيه: أن الكاثوليكية وحدها مأذون بها وأما أصحاب الديانات الأخرى فجزاؤهم الأشغال المؤبدة، وكل واعظ يدعو إلى ملة غير الكاثوليكية جزاؤه الموت.

وقتل فى فرنسا فى مذبحة واحدة وهى الشهيرة بمذبحة برتولماوس واحدا وثلاثين ألفا من البرتستانت.

وقتلت محاكم التفتيش حرقا بالنار حوالى مائتين وثلاثين ألفا، والذي قتلوا بالسيف وبالآت التعذيب خلق كثير هذا من غير المسلمين، أما المسلمون فقد ذكرنا أنه لم يبق فى أسبانيا من الثلاثين مليونا من المسلمين مسلم واحد، كلهم غدر بهم فمن قتيل أو طريد أو مكره على تغيير دينه.

إن إعطاء الانسان الحرية الكاملة فى أمر اختياره عقيدته وعدم إجباره على تغيير دينه بأى واسطة من وسائط الاكراه، ثمرة من ثمار محمد رسول الله ﷺ. ما كانت لتكون لو لا الوحى. إن العرب هذا الشعب القاسى، كان يمكن أن يمثل فى حال النصر الدور الذى مثله التتار من بعد. قتل جماعى، ومحو للحضارة، ولكن العرب على العكس من ذلك. مثلوا على مسرح التاريخ أروع أمثلة الرحمة والتسامح مع الشعوب المغلوبة، وهذا ليس من أخلاقهم فى الأصل لو لا دعوة الله ودين الله ومحمد رسول الله ﷺ.

بل إن عملية الجهاد المستمر، والتضحيات الكثيرة الى بذلت فيه من أجل إخضاع العالم لسلطان الله، مع اعطاء الفرد الحرية فى البقاء على دينه أو الانتقال منه الى الإسلام دين الله الحق، بالاقتناع الكامل، دليل كامل على أن محمدا ﷺ رسول الله.

فالذين يتصورون أن مقام النبوة يتنافى مع الحرب العادلة، تصوراتهم معكوسة تماما. إن حرب الأنبياء وحدها هى المعقولة فى العالم، اذ أن الحياة البشرية لا تستقيم إلا على قانون الله وشريعته. فما لم يكن العالم خاضعا لسلطان الله، فإن العالم تمزقه بمن فيه وقتذاك أهواء البشر، أما إذا خضع لسلطان الله المتمثل بعباده المستقيمين الصالحين، وشريعة الله، فان فى ذلك صلاحه. وكما قدمنا فلا يعنى إخضاع البشر لسلطان الله إجبارهم على الدخول فى دين الله.

والذين ينكرون على رسول الله الجهاد فى سبيل الله: إما ملحدون، وهؤلاء

أصغر من أن يرد عليهم لأن القتل والخراب الذى يحدث على أيديهم بغير حق يندى له جبين الوحوش. فقد قتلت روسيا من رعاياها من أجل إقامة الحكم الشيوعى تسعة عشر مليونا. وأما أهل دين: كاليهود والنصارى وهؤلاء يناقضون أنفسهم فان فى التوراة التى يؤمن بها جميعهم نصوصا كثيرة تدل على أن الأنبياء جاهدوا فى سبيل الله، وفى الانجيل وكتب العهد الجديد ما يدل على أن الأنبياء يحاربون وهذه شواهد:

١- مذكور فى كتاب المشاهدات الباب (١٩) والرسالة الثانية الباب الثانى لأهل تسالونيق وهما كتابان نصرانيان: أن عيسى عليه السلام سيقتل الدجال وعسكره بعد نزوله. أى قرب قيام الساعة وهذه عقيدة المسلمين أيضا.

٢- وفى سفر التثنية (١٠): وإذا دنوت من قرية لتقاتلها ادعهم أولا إلى الصلح فإن قبلت وفتحت لك الأبواب فكل الشعب الذى بها يخلص ويكونون لك عبيدا يعطونك الجزية. وان لم ترد تعمل معك عهدا وبدأت بالقتال معك فقاتلها أنت واذا سلمها الرب إلهك بيدك اقتل جميع من بها من جنس الذكر بحد السيف دون النساء والأطفال والدواب وما كان فى القرية غيرهم واقسم للمعسكر الغنيمة بأسرها. وكل من سلب أعدائك الذى يعطيك الرب إلهك. وهكذا فافعل بكل القرى البعيدة منك جدا. فأما القرى التى تعطى أنت إياها فلا تستحيى منها نفسا البتة ولكن أهلكهم هلاكا كلهم بحد السيف. الحيثى والآمورى والكنعانى والفرزى والحوابى والبابوسى كما أوصاك الرب الهك.

٣- وفى الباب الثانى عشر من سفر صموئيل الثانى هكذا (٢٩): فجمع داوود الشعب وسار إلى راية فحارب أهلها وفتحها وأخذ تاج ملكهم على رأسه.

والنصوص عندهم فى هذا كثيرة تجدها فى سفر الخروج الباب الثالث الفقرة (٤٣) وفى الباب الرابع والثلاثين منه (١٠) وفى سفر العدد الباب الثالث والثلاثين وفى سفر صموئيل الأول الباب السابع والعشرون (٨) وفى سفر الملوك الباب الثامن عشر (٢٠) وغيرها وغيرها كثير. يقول بولس المقدس عند النصارى فى الرسالة العبرانية الباب الحادى عشر فقرة (٣٢): وماذا أقول أيضا لأنه يعوزنى الوقت أن

أحدث عن جدعون وباراق وشمشون ويفتاح وداوود وصموئيل والأنبياء الذين بالإيمان قهروا ممالك صنعوا برا نالوا مواعيد سدوا أفواه أسود أطفأوا النار، نجوا من حد السيف تقووا من ضعف صاروا أشداء فى الحرب هزموا جيوش غرباء.

وأخيرا الجهاد فى سبيل الله ثمرة من ثمار النبوة، وعدم إكراه الناس على الدخول فى الاسلام ثمرة أخرى، وكلتاهما تشهد أن محمدا رسول الله ﷺ.

وهذه الثمار كلها غيض من فيض، وإلا فإن ثمار النبوة كثيرة تعجز الإنسان عن الإحصاء. وحيثما نظرت فى الإسلام دلك الإسلام على أنه دين الله رب العالمين، وأن محمدا رسول الله هذا الإله العظيم وأنه المبلغ عنه.

وإلى الباب الخامس لنرى حجة أخرى على رسالة رسولنا عليه السلام.

* * *

obeikandl.com